كتاب الطليعة

أوراق شاب عاش منذ ألف عام

جمال الغيطانى



كتاب الطليعة

أوراق شاب عاش منذ ألف عام

«مجموعة قصصية»

بقلم: جمال الغيطانى

مطبعة الترعة البولاقية ـ ت ٩٤٥١٠٧٢

الغـــلاف

من تصميم الفنان

عـــدلى رزق الله

الى صديق الفنان

عبد الفتاح الجمل

الذى أعطى للفرصة لجيلنا

محتويات الكتاب

اوراق شـــاب عاش منذ ألف عام

مقدمة

« عثر علماؤنا على هذه الاوراق أثناء عمليات تنقيب فى المنطقة الواقعة شمال مصنع المرئيات رقم ستين، حيث قامت منذ ألف عام مدينة كبيرة يحتمل أن يكون اسمها «المنيا» أو «أسيوط» ، وتخص تلك الاوراق أحد سكان هذه المدينة . وقد كتبها أثناء الحرب التى نشبت فى تلك الاحقاب البعيدة بين اجدادنا على ضفة النيل وبين دويلة صغيرة لم يصلنا غير معلومات ضئيلة عنها ، وكانت تسمى اسرائيل . لكنه من المعروف ان هذه الدويلة قد اختفت تماما بعد ذلك وضاعت أخبارها نهائيا، ونرى هنا مشاعر احد أجدادنا فى هذا العصر البعيد حيث يبدو ان وطنه كان يتعرض لبعض الاخطار ، كما نلمس ايضا احساسات أبناء هذه الفتره المليئة بالتناقض قبل انتصار الاشتراكية فى كوكب الارض كله، كذلك أورد هذا الشاب مختارات من قراءاته ومن معالم العصر ، وقدمنا هذه الاوراق كما هى ، فيما عدا توضيحات بسيطة راعينا ان تكون فى أضيق الحدود ، اننا لا نعرف تفصيلات كثيرة عن كاتب هذه الاوراق ، لكننا لا نملك الا الاحساس بالاحترام لاحد المكافحين الأوائل المجهولين لنا والذين مهدوا لحياتنا هذه».

كانت مدينتي مظلمة تماما ، المباني الكبيرة أشباح هائلة لا تفصح عن تفاصيلها ، كان الصمت مستكنا في الزوايا والاركان لا انفجارات ، لا صوت مدافع ، عدت أصغي الى الراديو ، الموسيقى العسكرية ، صمت مضن مرهق منذ الظهيرة ، لمح احد الزملاء شعلة ضوء في نافذة علوية ، عندئذ صحنا كلنا ... طفوا النور .. طفوا النور .. هبت موجات متتابعة من الهواء ، امام بيت قديم جلس رجل عجوز أصر على السهر معنا ، كان يؤكد انه قد رأى اربع طائرات.لم يعرف بالضبط ان كانوا من طائراتنا او طائراتهم ، انخفضوا ثم ارتفعوا حتى شك في انه هو الهدف المقصود ، ابتسمت في الظلام ، عدت اصغي الى الراديو ، صاحت امرأة تأمر طفلها بالسكوت ، سقط وعاء نحاسي في طابق علوي ، عامت رائحة غامضة في الفراغ ، قال المذيع . .

.. وخاضت قواتنا معارك رهيبة فوق الارض المصرية ..

صاح شاب لم أره .. ما معنى ذلك ، أدرت المؤشر ، لكن الصمت حاد قاس ، عاد المذيع يكرر البيان ، احساس غامض ، بان ثمة اشياء هائلة تحدث ؛ صحيح المسافة بعيدة ، اين سيناء من مدينتنا (كانت المسافة من منطقة سيناء التي كانت في هذا الوقت صحراء تماما الى اقصى نقطة في الوادي تعتبر بعيدة بمقاييس هذا العصر) لكني شعرت بالخطر ، ثم ما الذي يحدث لو انهار سد اسوان ؟؟

ستغرق المياه أرضنا بعد ساعات ، عدت أصغي الى الاصوات الخافتة .

— ليس من المستبعد ان يضربونا هنا ..

— انهم كلاب عمى لا يفرقون بين شيء وشيء ..

اقترب مني احد الجيران .. أشار الى الراديو ..

— هذا يعنى انهم على أرضنا ..

حملقت فى العتمة اللزجة الكثيفة ، خرس الراديو ، لم يعد قادراً على اعطائى اي شيء ترى ما الذي يحدث؟ ما الذي يجرى؟ أريد ان اعرف ، فليحدث ما يبدد هذا الغموض الذى يخنقنى .. لكن الصمت كان قاسيا ، لمحنا شعلة ضوء ، فعدنا نصيح ..

طفوا النور .. طفوا النور ..

« صفحة من المذكرات »

« ١٠ » « »

بلادي بلادي بلادي

لك حبى وفـــؤادي

هنا القاهـــرة . . .

لحظـــة صمت . . .

موسيقى عسكرية . . .

مصر التى فى خاطرى وفى دمى . . .
أحبها من كل روحى ودمى . . .
«الاذاعة فى صباح باكر من الايام الاولى ليونيه»

* * *

اقشعر جسمى أغنية كئيبة ، رمادية تثير فى نفسي انقباضا مؤلماً ، كل شيء فى خطر ، خرجت بسرعة من حجرتى الصغيرة الى شوارع مدينتى الضيقة ، كان الصباح صافياً جداً ، السماء براقة جدا لكننى أحسست بالسماء حمراء كالدم ، مخنوقة ، شيء ما يرثى . ما هو ؟ لا ادري . ربما النهر الكبير ، ربما الناس ، الاطفال الصغار فى زحامهم حول بائع حلوى امام مدرسة ، المسافرون لحظة الوداع ، ربما همسات الفتيات فى المساء ، ربما الاشجار وهسيس الحشرات بين اغصانها ، هذا الجبل ، تلك الكتب، قال الراديو قواتنا تقاتل فى الخط الثانى، طحننى السؤال كحجري الرحاية ، اين مواقع الخط ؟ لم تسعفنى الخرائط التى لا معالم بها ، شرب مدير المكتب قهوته، تحدث عن روميل . (قائد نازى عاش فى النصف الاول من القرن العشرين) . وتكلم عن «الحرب العالمية والعلمين» وتساءل اخيراً عما اذا كانت دور السينما تغلق فى المساء أم تفتح ابوابها ؟ ثم قال انه من الممكن للسينما ان تعمل فى ايام الغارات اذا ما احكم اغلاق المبنى ، ومنع تسرب الضوء ، قمت واقفا وخرجت فى العصر لم استطع النوم ، كنت مرهقا . منهكا . قال ساكن الطابق العلوي ..

— ضربونا الامريكان ..

ردت عليه امرأته البدينة ..

— صحيح بينزلوا البلاد ويفتحوا بطون الستات ؟

صاح الرجل ..

— ياوليه احنا رحنا فين .. والله يوم ما نحصل نموت أحسن؟

تصايح اطفال في الحارة ، نظرت الى الكتب المكومة فوق ارض الغرفة ، زحف صرصار فوق الجدار ولم احرك اصبعاً ، ترى ماذا يفعل اصحابي في القاهرة ؟ الغارات لا تهدأ فوقهم ، لابد ان حالهم أحسن مني ، كان من المفروض ان انام حتى استطيع السهر في نوبة المقاومة ، جفوني ثقيلة وذرات الرمل تملأ عيني لكم انا في حاجة الي النوم ، النوم حتى اسهر ، حتى أرى شملات النور التي تثقب ظلام المدينة ، لكنني قمت بسرعة ، خرجت الي الطريق ..

« صفحة من المذكرات »

(٠) (٠)

انى أشعر ببرودة اشد من برودة الماء

انى أشعر بحرارة اشد من حرارة النار

ويغرق جسمي في العرق بينما اهتز من شدة البرد ..!

هناك غشاوة على عينى ولا استطيع الرؤية .

« شكوى الإله رع الى ايزيس »

« » « »

تسلل اللون الرمادي القاتم فى خبث الى الفراغ ، غرقت البيوت القديمة فى صمت ما بعد الغروب ، أسرع المارة الى بيوتهم ، حامت فى الشارع رائحة شيء يحترق فى مكان ما ، عند ناصية حارة ضيقة رأيت زحاما ، وقفت اسمع المذيع .. همس احد الواقفين .

— انسحبت قواتنا الى الضفة الغربية .

قديما نصحنى صديق ان اتمضمض بالشبة لأزيل آلام اسنانى كان الطعم مراً قاسياً مثيراً للقيء ، لكنى مضمضته فى بطء ، جف حلقى ، لمع نجم كبير فى الطرف القصي للسماء ، بدا الجبل خطاً باهتاً على الناحية الاخري ، وكان النهر يمضي هادئاً بلا ضجيج .

« صفحة من المذكرات »

« » « »

وفى هذه السنة نقص ماء النيل ، فشحت الغلال . ونزل الوباء فى الناس ، فكادت مصر ان تخلو من سكانها . وكان النيل يفيض على الارض فلا تجد من يزرعها .

« تاريخ قديم »

انا الملك سوريد ابن الملك البودشير ، بنيت هذه الاهرام فى ستين عام ، فليهدمها من يشاء فى ستمائة سنة علما بان الهدم أيسر من البناء .

« التاريخ الاسطوري »

«.» «.»

« وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم . »
« قرآن كريم »

«.» «.»

... كنت أعبر الميدان فى البلدة ، كان خاليا غارقا فى عصر اصفر كئيب . زحفت عربة نقل كبيرة . فجأة ... لا ادري من اين جاء كل هذا العدد من الناس ، أفندية اسرعوا الى العربة ، امتدت الايدي الى حمولة البطيخ . خبطت الأكف على الثمار الخضراء ، تزايد الصياح ، حملقت البيوت الواطئة فى صمت ، رفعت عيني الى دار السينما ..

نجاة الصغيرة تركب دراجة ، يقودها الشاب خفيف الدم حسن يوسف . وقد احاطها بذراعيه .. فيلم شاطىء المرح .. اسبوع ثالث بناء على طلب الجماهير ..

عاودني طعم الشبة المر ، الهواء ساخن كالماء الدسم ، العرق

مثير ، لزج ، فى المساء تمنيت أن ينزل المطر ، ينزل ، ينزل ، ثم ينزل . اكلنى الحنين الى القطرات الباردة الرطبة وأقسمت فى سرى ، لو نزل المطر فسأقف فى الميدان الكبير أتلقاه ، لن أجرى ابداً ، لكن هيهات ان يحدث هذا فى ايام الصيف المجدبة تلك ، كانت السماء صافية تماما ، ورأيت مدينتى الصغيرة علبة ضيقة ملقاة بعيداً عن الدنيا ، وتذكرت ارض واق الواق ، وجبال قاف ، والبحارة المسافرين فى بحار بلا شطآن ، والطيور الصغيرة الضعيفة المهاجرة التى لا تجد قلبا حنونا تأوى اليه ، عندما انقضى النصف الاول ، من الليل دقت الساعة الكبيرة فى بهو المحطة ، حملقت الى الطريق الممتد فى جوف الليل .. من يدرى .. ربما سقط المطر فى المدينة الكبيرة .

« صفحة من المذكرات »

(•) (•)

اللهم بقدرتك اجر نيلنا ، وبلغ به المنافع ، اللهم انبت لنا الزرع ، وادر لنا الضرع ، اللهم لاتؤاخذنا بما جنته ايدينا ، اللهم دعوناك كما امرتنا ، فأستجب لنا كما وعدتنا .

« من خطبة امتسقاء »

(•) (•)

كان زحام الاتوبيس شديداً ، نظرت امراة الي رجل يحاول

الالتصاق بها فى حذر . فى أقصى الميدان كانت مئذنة الحسين تنتصب رشيقة تطعن الفراغ ، الرجال يدخلون الجامع فى خشوع منكسى الرؤوس ، فوق الرصيف وقف رجل بدين يصيح ملوحا بيديه .

ـــ عندنا الدواء الشافى من جميع الاوجاع ، قرش صاغ واحد يا سلام . عندنا .

بجوار باب الفندق جلس جزار بدين ، قصير جداً ، قال لجاره الحلاق .

ـ بلدنا كل شىء لكن ينقشنا (ينقصنا) تربية النفث . اى والله اهم شىء نثينا تربية النفث .

من النافذة رأيت فتاة تقف فى الشرفة المقابلة ، حملقت فى لحظة . مسحت شعرها بيدها . ضحكت وثنى جسمها وأشارت الى الطريق . عدت أدور بعينى فى الحجرة وطعم الشبة المر يدور فى فمى ، من اسفل صاح بائع صحف .

ـ الحق يا جدع . حرقوا امريكا فى فيتنام يا جدع .

تمددت فوق السرير . راح المساء يهبط رماديا مقبضا ، لم انم ثانى ليلة فى المدينة الكبيرة . قلت للمسئول الكبير .

استطيع عمل اى شىء تطلبونه سواء فى بلدتى او هنا . هز رأسه وقال .

كل شيء وله وقت . عندما نحتاجك سنبعث اليك .

وعندما عدت الى الطريق تذكرت بلدتى والطريق اليها ، خفق قلبى ، لم أع من قبل معنى وجود كلاب فوق ارض بلادى ، شيء لزج حقير أهان رجولتى ، رجال أجلاف اقتحموا بيتى واغتصبوا اختى امام عينى ، أسمعها تتأوه ولا اتحرك ، تغوص اسنانى فى الارض الصلبة ، لكن بلا فائدة (وهذا يؤكد لنا ان اجدادنا قد تعرضوا لمتاعب مؤقتة مع هذه الدويلة الصغيرة التى لم تعمر كثيرا) . نظرت الى الخارج . الليل ينزل فوق المدينة هادئا بلا ضجيج، ان لم اصل الى شيء الليلة فسأرجع الى بلدتى ، الى العابة الضيقة ، الثرثرة على المقاهى ، الحديث عن النساء ، كلام زميلتى عن المسبك ، التخديمة ، المسلوق .

اذا قلت لن ارجع فالى اين ؟

نظرت فى الساعة ، بعد قليل أنزل، آخر الليالى فى المدينة . ثم . لا أدرى .

(صفحة من المذكرات)

((.)) ((.))

يجب ان نجد حلا للشبان الذين لازالوا يتسكعون على النواصى . افتحوا لهم ابواب معسكرات المقاومة الشعبية .

(صورة تمثل شبانا يضعون ايديهم فى جيوبهم . ويجلسون على السور الحديدى امام الأمريكين ؟)

هجوم جرىء لثوار فيتنام . مصرع الف جندى امريكى.

على افندى ابراهيم يشكر ضابط وجنود نقطة الناحية لمساعدتهم إياه فى ضبط جاموسته المسروقة . فلهم الشكر .

مصرع جين مانسفيلد صاحبة أضخم صدر عرفته السينما العالمية . انفصل راسها عن جسمها .

الامم المتحدة تفشل فى اتخاذ قرار .

أين تقضى السهرة هذا المساء ؟

كفرويد أقوى مبيد

(من صحف الايام الاخيرة من يونيو)

((.)) ((.))

.. أحمر .. أزرق .. خطان لونهما أصفر .. اللافتة المقابلة تضىء وتنطفىء . المقهى مزدحم بالناس . قال صديقى وهو يرفع نظارته التى انزلقت على أنفه .

ـ لا بد من الالتحام بالناس والنزول اليهم والتحدث معهم ومعايشتهم ..

أكل قطعة خيار صغيرة مملحة ، شرب من كوب البيرة جرعة .

ـ هكذا يكون العمل والا فلا . آه . ألست معى .

صمت برهة . سألنى فجأة .

ـ الا قل لى . أخبار الثورة الثقافية اختفت هذه الايام . الا تعرف ما وصلت اليه ؟

هززت رأسى ، قمت واقفا ، أحسست بطنين فى أذنى . احد الزنابير التى تطن فوق حقول صعيدنا قد حاذى رأسى . عدت الى الطريق . الشوارع حبلى بفتيات جميلات وشبان متأنقين . الفساتين قصيرة جدا والارداف تترجرج تحت القماش . امام محل بيع العصير وقفت عربات طويلة يشرب اصحابها اكواب المانجو والفراولة . تزايد ظمأى . لكننى مضيت هل أقعد ؟ ام اظل ماشياً بلا نهاية ! ام اذهب الى الفندق وانام ثم لا أصحوا الا بعد الف عام . اعود الى الشوارع طويل اللحية . قذر الاظافر . زائغ العينين . تحملق العيون فى مستنكرة . تمتد الايدى تتفحصنى . البنايات غريبة لا تتسع لى . الطعام ليس كما تعودته . حتى الماء اجد فيه طعم الشبة المر . شعر بوحدة . بخوف . أتمنى لو تقلصت . لو تلاشيت فاعود من حيث جئت .

اشعلت سيجارة . نفذت رائحة الدخان الى انفى . كانت

الاضواء تختلط ببعضوا فى نهاية الطريق ، تمنيت فى هذه اللحظة لو ان معى صديقة ، حلوة ، رقيقة ، صوتها هادىء عميق) تومىء بذقن صغيرة حلوه ، يبدو فى عينيها الحلوتين بريق يبعث الدفء فى نفسى . اتكلم و تتكلم و اسمع . اتكلم و تصغى و اخذت نفساً عميقاً . و بدت لى حجرة الفندق بسريرها الحديدى الاسود الضخم مقبره هائلة ضخمة يمرح فيها دراكولا ، يحملق الى الباب فى انتظارى . يلمع نابيه يقطر منهما الدم : لمحت اضواء السينما تمايل المطرب على شاشة التليفزيون . لم اسمع ما قاله . مشيت متمهلا . قالت امرأة لرجل عجوز . « هو فاكر الفلوس اللى بيسيبها لى تكفى . والله باستلف على العشرة صاغ عشره تانيين علشان اكفى العيال عيش حاف بس . قل له ييجى انا تعبت . الحمل تقيل عليه ومش قادره أشيله لوحدى » .

(صفحة من المذكرات)

* * *

لو مت ع السرير ابقوا احرقوا الجسد .

و نطوروا رمادى ع البيوت

شوية لبيوت البلد

وشوية ترموهم على (تانيس)

وشوية حطوهم فى ايد ولد
ولد أكون بسته ولا اعرفوش .

(شعر عامى . حجاب)

* * *

قلت لصديقى الذى التقيت به قرب الفندق .

وهكذا انا حائر . لا اعرف هل اوجع ام ابقى .

حلق فى . اسند كوب العصير الفارغ الى ترابيزة الرخام .

- اسمع . مازن سافر الى الاسماعيلية

- من مازن ؟

- اى واحد . انا نويت . الجو هناك سنجد فيه ما نبحث عنه .

بللت شفتى بلسانى . وضعت يدى على كتف صاحبى ، عيناه تلمعان لمعانا غريبا ، سألتقى بكثيرين مثله . بالتأكيد ستجىء ليالى مشحونة بما انا فى حاجة اليه . قلت .

- نلتقى غدا .

- هات معك بطانية وزمزمية ماء .

ـ الى اللقـاء .

لن أعود الى الحجرة الضيقة . الى الفتاة التى تلوح بيدها. سأدور فى الطرقات حتى يسحب الليل نفسه. وتتساقط ذرات النهار فى الفراغ . ثم أرحل .

المقتبس من عودة ابن اياس الى زماننا

ارتعبت فالدنيا غير الدنيا والمدينة ، ليست بالمدينة حتى الناس خلاف الناس . لا أهلى لقيتهم ، لا كبير او صغير . عظيم او حقير من ايامى التى أجهل مصيرها ولم اعرف ما يفصلنى عنها شهور او سنين. وعندما بعث اصحاب الرقيم من نومهم ليتساءلوا فيما بينهم، قال قائل منهم ·

كم لبثتم ؟

قالوا لبثنا يوما او بعض يوم ، قالوا ربكم اعلم بما لبثتم ·

لكننى لم اعرف كم مضى على ولم اعرف لم جئت ؟ غير انى قلت لو انسقت وراء الدهشة والغربة ، لو تملكت منى الرهبة وافترسنى الخوف ، لضعت فى هذا الزمان الذى تحرك وطار فيه الجماد ، فلأرقب واستمع ما يدور حولي من عجائب وغرائب . والله لو رآها واحد من أهل زمانى لنشف جلده ومات رعبا وراح على نفسه ·

* * *

المقتبس الاول من اليـوم الاول

تعاظم الزحام فى الطريق حتى خلته يوم الحشر . كدت أتعثر فى مشيتى . وصدمنى الكثيرون حتى ان عمامتى كادت ان تنخلع. وكان الليل يرحل فما زال الليل يلى النهار . وكانت الاصوات عالية.

رجال يزعقون وصبية يتصايحون ونساء يتهامسن ويتغامزن. وتمنيت لو اقعد فى مكان بعيد ارقب كل هذا ، غير انى لا اعرف الطريق ، وكنت تعباً فقد بلغت فى زمانى الاول سبعة وسبعين سنة ، لكننى لم استطع الا المشي ، اذ ان المارة يتدفقون كأنه النيل فى عام تعاظم فيه الفيضان واشتد ، فجأه جذبنى رجل من ذراعى فكدت انكفىء على وجهى .

— لو تسمح . امشي فوق الرصيف .

ما الذي جرى للناس فجأة . لم اعرف ما يحدث فى عرض الطريق وقف شباب ينظمون الرايح والجاى ، قرأت فى الوجوه ان شيئا عظيما يقع ، وكان الايل قد نزل جامدا كالحديد ، خفض الاصوات فجأة فارتعب قلبى . تتبعت من بعيد اصواتا مكتومة هائلة كأن السماء تقع فوق بعضها ، ارتجت البيوت رجاً مهولا ، كادت ضلوعى تنخلع من الخوف ، قال رجل .

الضرب جامد ناحية العباسية .

رد آخر . اوقعنا لهم طائرتين .

لم أرهم غير ان ماقالاه احسسته، هناك خطر وكانت الرجل قد خفت من الطريق ، فاستندت الى جدار جامع قديم ، وتمنيت لو القى امرأتى وعيالي ، لو بيتى قائم كما هو .

انقطع الصوت فنزل هدوء كانه السوق لحظة قطع رأس طفل

صغير فوق باب زويلة . كأنه البلدة ايام توقف النيل عن الزيادة ، كأنه ، والله ، وجوه العوام المبتئسة لحظـة طواف المنادي معلنا عن مكوس جديدة من قبل السلطان. فجأة فرقعت السماء وسمعت اصوات غريبة ، ضحك رجل قال ولا يهمك ، سأل شاب فى مكان قريب، كله تمام؟ وأصغيت متعجبا و كأن الليل قد اوغل حتى آخر عظامى .

(.) (.)

(منادي قلعة الجبـل يقرع طبلته ، يتوجه بالنداء الى اهـل المدينة) .

يا اهالي القاهرة

سيخرج الملك المعظم سيف الدين قطز .

بعد ايام قليلة لمجاهدة الـكفار .

ونصرة الدين .

فجند التتار يهددون الديار . وهم خربوا بغداد وقتلوا خليفة المسلمين واستباحوا نساءها .

ومزقوا ابكارها ولاطوا باطفالها .

جند التتار يهددون الاهل والديار .

ادعوا للملك العظيم سيف الدين بالنصرة على عدو الله وعدوكم

* * *

يا اعراب البادية • يا نسل الصحابة والمجاهدين •

اوقفوا غاراتكم على قوافل السفر . تصالحوا فيما بينكم •

اخرجوا يداً واحدة للجهاد •

واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا •

* * *

يا فتيان مرجوش وبولاق والربوع •

يا زينة أهل المدينة •

يا أشجع رجالها •

الجهاد • الجهاد •

وما النصر الا من عند الله •

* * *

المفروض أن يكون النيل على أشده فى الزيادة ، فالجو حار والتراب يطلع من الارض وينزل من السماء يملأ الفراغ . وعندما يتكاثف الزحام يصبح المشي أو الوقوف شيئا لا يطاق ، سرت فى طريق هادىء حن اليه قلبى . ورحت أتفرج على البنايات المحيطة بى . فجأة سمعت حس رجل ورائى . فالتفت شاب يقارب عمري وقت ان جاء السلطان قايتباي الى الحكم . كنت يومئذ فى العشرين . اول العمر وفرحته . حاذانى فى مشيتى . وجهه نحيل . يتأبط كتابا . فى عينيه حزن كبير كما لو مات له قريب . لم يرد على السلام . قال :

— انها هنا .

— من ؟؟

— سعاد .

توقفنا تحت شجرة ضخمة لا مثيل لها فى هذا الطريق . كاد الرعب ان يتملكنى . استعذت بالله . حرت فى أمور هذا الزمان . يابنى من اي عصر انت ؟ ومن اي زمان حتى استريح واعرف بدايتى من منتهاي . ألا يكفى نطق الجماد وطيران الحديد . فأي سعاد هذه يا ولدي ؟

ـ انها تعيش فى كل قطرة دم من عروق . من خلالها أرى

الدنيا كلها بحلوها ومرها . لا أنام الا على صورة وجهها . خضرة عينيها وما تمنحني من أمان ، سعاد .. شعرها وهذه الوردة الصغيرة التي تتوسط مقدمة رأسها كأنها علامة تهدي المسافرين التائهين .

أحبها حتى النخاع ياسيدي ومع ذلك لا ألقاها . لا ألقاها .

تخللت لحيتي باصابعي . كدت اولى مبتمداً فعيناه تبرقان . حتى خلته فقد العقل والصواب . أم ان هذا حب ذاك الزمان ؟

ـ كيف يا ولدي . أليست امرأتك وام عيالك ؟

اطرق برأسه . الحزن الرقيق يشع من هيئته . اشفقت عليه . لو اقول له ما يريحه . لكنى لا اعرف ما يحسه . لا اعرف .

ـ انها لا تعرف انني احبها . ان كياني يذوب من اجلها .

صحت . كيف ! رغبت في سماع جوابه . وكان الليل حولنا غامضاً كبحر الصين . كأني أحسه لاول مرة ولم أر مثله في العصر الثاني . زعق شيء ما في مكان بعيد .

ـ لن تعرف كما لا تعرف هي . كم احبها ! كم عانيت من اجلها !

هذه الليالي الطويلة التي وقفت امام نافذتها . ربما رأيت خيالها يلوح من وراء الستارة . ربما امتدت تتناول شيئا من فوق النافذة ، وربما اسعدتني فخرجت تطل الى الطريق . في اكثر من ليلة جرجرني عسكر الداورية ، وفي ليلة اخرى أمسكني رجل ،

كاد يضربني ، فما الذي يجعل شاباً يقف تحت بيت . آه لو رأيتني يوم ان قابلتها ، في الصباح لم يكن في الطريق سوانا . قلت لنفسي فلأكلمها ، فلأقل لها لفظا واحدا ، ورحت اقترب منها واقترب، وعنـدما نظرت اليها التقت عيناي بعينيها . ساعتها اثقلت لساني اطنان الحديد ، قيدت حركاتي آلاف القيود ؛ توقفت لحظة كأنها تنتظر ودق قلبي وهبط حمل ثقيل في داخلي ولم اقل كلمة فمضت ، وعند ما اختفت ضربت وجهي بيـدي ، لطمتني بيوت الطريق في السكة القاسية التي لا ترحم . حرت ولم ادرما اقول ، غير انني خفت عليه ، تصلبت عروقه كأن المسكين لم يحدث شخصا إلاي ، وددت لو ارى سعادا هذه ، كنت لشدة كلامه وقوة حجته قد احسست بوجودها ، لـكن اين ؟

ـ اذهب واطلبها من ابيها .

ـ لا اقدر . فزواج هذه الايام صعب ياسيدي ، كما ان ابيها رجل قاس لا يرحم ولو اخبره احد بما اشعر به لـكتفني واثقل جسمي والقاني في النيل .

ـ منذ متى وانت في هذا العذاب ؟

ـ لا اعرف . كانت سعاد تسكن شارعنا ، كانت صغيرة كزهرة السوسن ، نما حبي لها كعقلي وجسمي ، فجأة انتقلت عائلتها الى شارع غير الشارع ، غير ان حبها علق في قلبي ، رحت ارقبها في كل مكان . لا ابوح لها ولا

تحس بى . وها انا اروح وأجيء فى الطريق الذى تسكن
فى بيت من بيوته . ربما رأيتها .

ـ والله لا اعرف ما اقوله ياولدى .

انطلق من قدامى وعندما درت لم ألمحه ، كان الطريق ساكناً وفيه وحشة. تابعت مشيتى وانا من الدهشة فى امر عظيم ، اى شىء هذا الذي يحسه .

أهى قوة الجن الخفية ، الذى يغذى حبه طوال السنين. لو ان ما يشعر به شيء ملموس لفهم وعرفت ، لو اننى رايت سمادا ، عاودنى الشعور بوجودها ، كأنها تطل على من الليل كله باشجاره واطياره ونيله حتى وطاويطه وخباياه . حرت فيما داخل عقلى فجأة وصرت مملوءا بالدهشة والرهبة . تمنيت لو اجد هذا الشاب امامى.

« انتهى ذلك »

((•)) ((•))

مقتبس من ليلة كان الزحام فيها شديداً والشتاء لا زال بعيداً .

منذ ان قابلت بوابة زويلة وكأنى وجدت جزءا من نفسي . او عضوا كان مفقودا من لحمى وعظمى. لم أر رقابا مقطوعة تتدلى منه او اجساماً مخوزقة او موسطة معلقة به » اما المئذنتان فنفس الوقفة لم تتغير . صارت سلوتى المرواح والمجيء كأنى استظل به

وأدثر روحى باحجاره. كانت قاهرتى تبدأ من هنا وتنتهى عند بوابة النصر . زعق بائع جوافة . ضرب مكارى حماره . وامام دكان صغير استقر صندوق صغير يطلق الاصوات وما ترسله آلات الطرب والغناء . قلت لنفسى فلأسمع بعض ما نطق به الحديد . انبعثت انغام حادة . اقترب البعض . صوت رجل غليظ يقول ان العدو فتح نيرانه صباح اليوم هز الواقفين رءوسهم . ثم قال ان هجوما جرى فى الجنوب وان الفدائيين اقتحموا مدينة عدن . وان الانجليز مات منهم ستون ، لم اعرف الى اى جنس ينتمى هؤلاء ، لكن احساساً خفياً همس لي ، لابد انهم ينتمون الى الافرنج الذين عبثوا طويلا بشواطىء مصر زمن الاشرف قنصوه الغورى ، الا انه أرسل من التجاريد البحرية ما قطع دابرهم من البحر المالح كله ، سكت الصوت لحظة ، آذان الجميع مصغية ، كأنهم ينتظرون امراً عظيما او شيئا خفيا عنهم ، ثم قال ان شخصا من زعماء الفرنج قابل زعيما آخر واصدر بيانا وقال ان مائة رجل من الفيتنامية هاجموا الفا من عسكر الامريكان وابادوهم عن آخرهم ، فقامت الطائرات وضربت البيوت بقنابل الحريق وقتلت أولاداً صغاراً ومات كثيرون .

وعجبت ! كيف لمائة ان يقتلوا الفا، وزماننا . قالوا ان الكثرة غلبت الشجاعة .

لكن الامور انقلبت فى هذا العصر وتغير الحال ، ووقف رجل يحمل فوق رأسه قفصا كبيرا مليئا بالخبز يسنده بيد واحدة

ويركب عجلة تمشي فى توازن عجيب . وعاد الصندوق يكرر ما بدأ به . مشيت متمهلا وكان الليل ينزل اسودا مغتاظا يسيل كالقار. آه لو أكلم واحداً واحكى له همى. كيف وجدت نفسى فى عصر غير عصرى وزمان غير زمانى . أهذا لسوء بختى او لحسن حظى؟ لكننى لو قلت ذلك لرجل او امرأة لما عرفت ما سيفعلون ، وكان مستحيلا ان اعثر على واحد من ايامى ، لعنت الف مرة الذين عنوا ان يعيشوا الف عام ، أحسست اننى تلاشيت فى اي لحظة، كنت تعبا مرهقا والعطش يتملكنى ، مشيت بجوارى بنت مليئة تلبس لباسا قصيرا كشف عن ركبتيها ، وكانت تهز مؤخرتها هزاً محكما لينا ، لو اعود شابا استعذت بالله ، ما الذي جرى للناس ، ربما هذا من علامات الساعة ، فجأة توقف امامى رجل عجوز على رأسه طرطور اخضر ، مقوس الظهر حتى يكاد ان يلمس الارض بوجهه يرفع سيفا خشبيا ، صاح بصوت غليظ وريقه يسيل .

ـ وحد الله يا راجل .

ـ لا إله إلا هو .

ـ انا حامى الحسين الشهيد . هل تقصده بسوء انا اعرفك .

ارتعبت . اهتزت لحيتى .

مددت يدى باسطا اصابعى .

ـ رحم الله سيد الشهداء وزينة شباب اهل الجنة .

همس ابتعد انا اعرفك . مضى مهتزا ولم ادرك قوله . وصلت الي الشارع الكبير ، ملت الي قهوة صغيرة امامها عيال يزعقون وامرأة تجري امام رجل صارخة ، الراجل سابني من غير مصروف. يرضي مين ده يا مسلمين ، حولي كثيرون يحملقون الى صورة امرأة . تعودت هذه الخايلة ، وكانت المرأة الاولى حلوة بيضاء تسأل الثانية الرفيعة كالبرص .

- وصلتنا رسائل كثيرة يا مدام، كلها نلاحظ ان فساتينك الاخيرة جديدة خالص . رفعت حاجبيها وقالت . انها تحرص على تغيير لباسها دائما ، ثم قالت . ما رأيك فى تسريحة شعرى ، ألم تصلك ملاحظات عليها ؟

فقالت المرأة البيضاء . جنان . جنان . جنان .

وتتابع الحديث وظهرت امرأة تتشقلب ورجل يفتح فمه ويغلقه ويبرق بعينيه ، وجاءت شابة ورجل سمين بكرش طويل وبعض الفلاحين وكانوا يقولون كلاما لا افهمه، غير ان البنت الشابة تفتح فمها وتغلقه قائلة . لازم تاخدوا حقوقكم . لازم ، وكان الرجل البدين يزعق فيها - لا انتى بنتى ولا اعرفك - والفلاحون يصرخون والمركبات تطلق اصواتا مزعجة واشخاص يزعقون فى ركن القهوة -هيه زنقته فى اليك- والبنت تصر على ان ياخذوا حقوقهم ، طاف رجل ينادى على بضاعته ، واطلت امرأة تتمايل وتتثنى وتتخلع وترقص حاجبيها ، وتغمض عينيها وتقول :

الوله جه وندم عليه انا قلت لأ ـ وعاد الشاب يطل علينا مكرراً حديثه عن النيران والفرنج والقنبل وآلمتنى اسى وضربنى مشاعلى على ظهرى بسيفه حتى تكسر . ومشيت فى اتجاه الجامع الازهر حيث بعض راحتى . ورأيت المرأة . الشاب النحيل . آه لو اجده يكلمنى عن سعاد . هل كلمها يا ترى حتى الشارع الذى قابلته فيه ضللت الطريق اليه . آه لو اكلم اى آدمى فى هذه اللحظة . انى غريب حتى عظامى . تتقطع قلبى . الخندة حولى كمواء بلدة نزل بها الوباء . آه لو عدت فى زمان غير الزمان .

بدا الجامع الازهر . جاس امامه فقيه اعمى يهز جسمه ويتلوا بصوت مبحوح نفذ الى كليتى .

« فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها . قال اخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيئا امرا . قال ألم اقل لك انك لن تستطيع معى صبراً .

(انتهى ذلك)

* * *

وهذه نبذة فيها عجائب وموعظة للمؤمنين .

واذا تقوم القيامة . ويصطف الخلق صفوفا . طول الصف مسيرة اربعين الف سنة ولا يعرف الواقف اباه ولا اخاه .

ويرشح العرق ويأخذهم على قدر ذنوبهم . فمنهم من يأخذه الى عنقه . ومنهم من يعوم فيه عوما . ويطول الوقوف ويشتد الكرب . فيقولون انطلقوا بنا الى آدم فنسأله ان يشفع فينا فيأتونه فيقول . مالى وللشفاعة . ويذكر ذنبه . فيأتون نوحا فيقول كيف لى بالشفاعة وقد اهلك الله بدعوتى كل من في الارض . فيأتون الى الخليل صلوات الله عليه ويذكرون له الحال فيقول مالى وللشفاعة انطلقوا الى موسى . فيقول لهم ابن عمران مالى وللشفاعة وقد قتلت نفسا . فيجيئون الى عيسى ابن البتول فيقول انى ادلكم على صاحب الشفاعة الكبرى انطلقوا الى ابى القاسم بن عبدالله خاتم المرسلين . واذ يشكون اليه حالهم يبكى النبي عليه الصلاة والسلام فيأتى العرش ويخر ساجدا فينادى يا محمد ليس هذا يوم السجود فسل تعط واشفع تشفع . فيقول يارب مر بالعباد الى الحساب بعد ان اشتد الكرب. فيجاب الى ذلك وينادى . وعزتى وجلالى لا يجاوزنى اليوم ظلم ظالم ولا جور جائر . ولأقتص من الشاة القرناء اذا نطحت الشاة الجفاء . ولأسألن العود لم خدش العود ولا يدخلن احد النار او الجنة وفى قلبه مظلمة . قال كعب الاحبار لو وجد من عمل مثل عمل سبعين نبياً لخشى فى ذلك اليوم .

* * *

لحظات شديدة الحزن تخللت احد ايام العودة .

الزحام على اشده والخلائق تصطدم ببعضها . البنات يتخاءمن وينظرن نظراتهن الجانبية . بائع بسبوسة يخبط حافة صينية بسكين صغيرة . رجال ألسنتهم تخرج من افواههم . خرجوا فجأة من زقاق جانبي وهم ممسكون برجل حليق الشعر رفيع العنق جاحظ العينين . يضربونه على عنقه ويصرخون . الحرامى . الحرامى . لمحت شابا صغيرا يلمح الناس كأنه يبحث عن شيء ، اقترب منى .

تصور يا سيدنا الشيخ ان ابى خرج ولم يرجع حتى الان !

تدافع الناس حولنا وكانت ايام زيادة النيل تولى والصيف يموت وعينا الشاب غير مستقرتين ، ترى اين راح ابوك يا بنى ؟

ـ سافر الى البلدة ليحضر نقوداً ، مرتبه لا يكفيه واخوتى يعلمهم ابى اما انا فاعمل لأساعده ، ومع ذلك فقروشنا قليلة ، دائماً نطالبه بنقود ، أمى تطالبه ، اخوتى يطالبونه ، ما اعطيه له لا يكفينا . أبى عجوز يا سيدنا الشيخ وطيب جداً ، تصور انه عاش ثلاثين عاما فى مصر ولم يتشاجر مع احد ، لم يعرف السهر ، لم يأكل اللوز المقشر ، لو تدعوا يا سيدنا سيعود الينا ولو بدءاً واحدا من هذه الايام البعيدة ، عندما كنا صغارا عندما يدخل علينا بطعام العشاء ، لو يرجع هذا اليوم الذى دفع فيه مصاريف اخى كان سعيدا . . . كاد يطير من

الفرحة لانه دفع المصاريف . لانهم لم يطردوا اخى . بعض ما قاله غامض . غير انى احسست ما تمناه ، انا لا ارغب فى عودة يوم بل انمنى عصرى لاستريح ارى اخى يوسف الوردكاش وصهرى فى قماش المصارع . انا لا اعرف كم من الوقت مضى على . أحيانا يخيل لى اننى قضيت الف عام اسمع واشم وارى ومرة اغوص فى عمق حقيقى بعيد ولا اعرف حقيقة حالى وأكاد أروح على نفسى . آه من بعد الزمن الذى لا أفهمه .

ـ فى الايام الاخيرة كنا نتشاجر اخيرا يا سيدنا ـ ترك ابى البيت عدة مرات. عندما قابلته هائما على وجهه فوق كوبرى الجامعة . نظرت الى عينيه المجوزتين دق قلبى مرتعبا . أحسست به لكم هو عجوز بانحناء كتفيه . قاس . نام فوق الارض لكنه لم يشاء ذلك لواحد منا وها نحن نجازيه . نتسبب فى طرده . شق الطريق رجل ملون الوجه بالصبغة . خلفه عيال يحملون خشبة عليها رسم رجل يحضن امرأة . يوزع ورقا صغيرا .

ـ هل تسمعنى يا عم الشيخ ؟

قلت برثاء . وانا لا اعرف ان كان النهار يتقدم ام يرجع فارى الشمس تطلع مرة ثانية ، بل اننى ارى والدك امامى ، قال لو ألف الدنيا ؛ احكى للناس عن ابى ؛ لقد شعرت بمدى جرمى يا سيدى ، باننى حقير باننى صرصار عندما رأيت خالة

ابى . كان جائعا لم يأكل ، اخذته وأكلت معه وعدنا الى البيت . لكن لم يمر يومان حتى تشاجر مع امى . فسافر الى بلدتنا . آخر الصعيد يبيع نخلات يملكها ، ويرجع ليسدد ما عليه من ديون .

نسمة هواء ، من اى خريف موبوء جئت ؟ ما هذه السنة التى لا اعرف لها فصلا من شهر . عينا الشاب تمتلىء بدموع غزيرة كالنيل اذا تزاحم ماؤه وراء سد الخليج قبل فتحه .
قال انه سيغيب يومان لكن مضى شهر ولم يرجع .

- سافر يابنى .

ربما وجدته لا استطيع ان يفصلونى من شغلى .

كأنه يقول لغزا ، تعاظم الزحام من حولنا حتى كاد ان يجرفنا ، قلت له ارسل مكتوبا ، فقال انه لا يعرف احد من اهل البلدة ، فمنذ خروج ابيه ماشيا على قدميه ثلاثين عاما وابناؤه لا يعرفون واحد منهم . خبطت كفاً بكف ، وحرت فيما اقول .

- ولن يعرف احدا ابداً ، آه يا ابى ، كنت احبك ولم اشعر بك الا بعد ضياعك لو أراك لحظة واحدة ، وينتهى كل شىء موجود ، حياتنا لم تعطنا الفرصة لنقول الكلمة الحلوة لبعضنا ، سأقضى العمر باحثا عنك ..

طبطبت بيدى على كتفه ومر الناس من حولنا مسرعين وكان الوجود فيه صفرة وخنقة وكأن الصيف جاء بكل ثقله فى لحظة .

ـ ربما جاء ياولدى . قال ربما قتلوه ياسيدنا ؛ ربما وجدوا فى شخصه الفقير مايسد دين دم على عائلته لعائلة اخرى .

ـ لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ؛ يتمنى لقاء ابيه ولا يلقاه ؛ لماذا لم تقل له ما ترغب ، هل ستجده ومن يصغى اليك فى هـذا الزحام ؛ حماق الى طويلا وانطلق فجأة درت برأسى فلم ألمحه ، والله لو استمر يوقف هؤلاء الناس واحداً بعد الآخر فلن يحس به احد ، الزحام وتتابع الوجوه يأكل ما عظم وما صغر ، اشتدت الحيرة بى ؛ وانطلقت فى نفسى جمرة من حسرة لو أحكى لواحد من الناس ، علا التراب وترنحت النساء وطالعت فى العيون شيئاً كأنه موجه لى ، يقول فى صمت اخرس ! ألم أقل انك لن تستطيع معى صبراً .

(انتهى ذلك)

* * *

لحظة واحدة لم ير بعدها الشيخ العجوز الذى اعتاد التجول فى طرقات المدينة .

وامام الناس كلهم استوقفتنى امرأة وكانت تمسك فى يدها

قلما ، فى يدها اوراق واستعذت بالله وسخطت عليها .

ـ كيف تكلمين رجلا لا تعرفينه .

ـ يهمنى معـــرفة رأيك . قل لي اسمك وسأكتب ما تجيبنى به .

ـ عيناي متعبتان . البرد حاد كما انّ صدري يضيق وتنزل عليه كتمة . والله لا اعرف ما تريدون . الغيظ فى عينيها لـكن الضيق والحيرة يثقلان نفسي ، ترى الى اى جيل من النساء تنتمين، أحقيق انك من سلالة حواء . وفى اي الاعوام نحن ؟

ـ أليس لك رأي فى رجوع الـكرة او عدم رجوعها ؟ زمت فمها ثبتت نظراتها علي ، حلق فينا شاب هز رأسه ثم مضى : المجذوب حامى سيد الشهداء يمشي منحنيا رافعا سيفه ، فجأة انفرجت اساريرها .

ـ آه انت ضد الـكرة لانك شيخ . يهمنى اكثر بمعرفة رأيك . ما اسمك ؟

قلت متمهلا . والبرد ينفذ الى عظامى ، حتى الشتاء ليس بالشتاء .

ـ محمد احمد بن اياس . تحرك قلمها فوق الورقة . نظرت الي بدهشة :

- ألم تسمع عن الاهلى ؟

- لا اعرف شيئا عن هذا ؟

سنة ربما خمسمائة عام حملقت فى . قلت لا تتعجبى . فأنا لا اعرف ما تقولينه ، ضيقت عينيها وقالت ما اسمك . أعدت عليها فتقوس حاجبيها .

- انني اعرفك ؟

وكان الليل قد رمى نفسه حولنا . تغير لون وجهها ، كأنها غير التى كانت تقف امامى ، وكان لسانى ثقيلا ورأسي مدفونة ، كأنهم يحرقونى على شموع ضعيفة . سألتنى .

- ما الذي اتى بك الينا ؟

قلت : لا اعرف وقلت لها هكذا توقفين الرجال وتسألينهم عما يفهمونه ولا يفهمونه . قالت : هذا عيشي . عادت تسألنى . لم جئت ؟ غير انني لم ارد . وتابعت مسيرى . حنين فى نفسي اليها غير أنى ابتعدت . ارتعشت اسنانى وكان الطريق قد نزلت عليه خمدة وظلمة تلاشى كل اثر لصوت الصناديق . ومنظر المركبات المندفعة لتدهسنى . تمنيت الا ارجع ان اظل ابتعد . لكن نفسى

اشتاقت الى الناس . لكن مع من اتكلم ! كيف افهم امورهم ! الى اي العصور والاجيال ينتمون ، نظرت ورأني كأنني اغوص في بئر القلعة السحيق ، ومن خلال الظلام خيل لي انني سمعت صوتا له صدي عميق ، وتذكرت الفقيه الاعمى العجوز الجالس فوق الرصيف . وكان يتلو بلا ملل : « هذا فراق بيني وبينك . هذا فراق بيني وبينك » . وكنت من التعب في حال فاغمضت عيني .

أيام الرعب

الاسم بالكامل : محروس فياض سلامه

تاريخ الميلاد : ١٩٤٥/٥/٩

الديانـــــة : مســـلم

الوظيفـــــة : رسام بالمؤسسة العامة

محل الاقامـة : الجمالية ، كفر الطماعين

رقم البطاقـــة : ٨١٦٦

فصيـــلة الدم :

تجددت هذه البطاقة فى يوم ٦٨/١١/١٨

* * *

... حارة الوطاويط ، البلاط المضلع ، الجدران الرمادية المنتفخة بالرطوبة ، امرأة عجوز ترمش بعينها . بنت تمشى متمهلة تحمل حقيبتها الممتلئة بالكتب المدرسية . انحناءة خفيفة عيناها جميلتان . قشر قصب ملقى عند زاوية الحارة .

التفت وراءه بسرعة .

المنحنى الضيق خال . لا احد .

صوت تلاميذ صغار من داخل المدرسة ، يقرأون فى صوت واحـد .

رجل .

صوت رفيع لطالب صغير .

امرأة .

مصلحة الدمغة والموازين .

بائعة الفجل امام دكان عم محمود السماك ، عند باب الحارة ابطأت خطواته . جامع سيدى مرزوق مغلق . ان ينظر وراءه قضبان نافذة الضريح حديدية سمراء باردة كالهواء المحيط به . أغمض عينيه . بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . مالك يوم الدين ..

لثم ظهر يده وباطنها ، العمامة الخضراء فوق الضريح ضخمة كبيرة ، دار برأسه بسرعة .

صبى صغير يدحرج طوقا حديديا ؛ بائع كرنب ؛ رجل يرتدى جلبابا صوفيا قديما ، فتاة سمراء تعبر الطريق على مهل . لم تتوقف عيناه عندردفيها ، عض شفتيه .

لا أحد .

منزل رقم .. انتخبوا .. فريق النسر الذهبى يتحدى القمواكيش ، سينما الكواكب ، هذا المساء .. اعلان قديم تآكل ورقه ، مربع رقم .. «٢٦» فرن الحاج نصيف .

قبل ان يدخل المندرة فى الدور الاول ، قبل ان يفتح الباب

قبل ان يخرج المفتاح ، اطل من باب البيت القديم ؛ رائحة غسيل
يا خس يا حلو قوى ، هل رأى بائع الخس من قبل ؟ هل صادفه
فى الحارة ؟ نعم ؛ نعم ؛ بالتأكيد . رائحة بصل يقلى فى زيت .
ام سيد الحلوة تنشر غسيلها ، تومىء برأسها لست عطيات .
الشرفات متقاربة متعبة . وحدة العصر الشتوية وجو رمضان
النهارى يغلف الحارة . صاحت ام يوسف يابت .

لا أحد

تمدد بثيابه كاملة فوق السرير . كأن الباب له رأس وذراعان
وعينان ترقبانه . قام واقفا ليتأكد من اغلاقه مرة اخرى .
رائحة الرطوبة فى انفه . النافذة الوحيدة مغلقة . لن يقف
وراءها احد . سيلفت انظار الناس . لكن عندما يجىء الليل.
عض شفته . مد يده داخل الجاكتة . لكم يبدو مظروف الخطاب
الذى لم يصله الا الامس متآكلا .

* * *

ولدنا الغالى محروس فياض .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . بعد السؤال عن صحتكم
نعرفكم باننا طيبون لا ينقصنا سوى رؤياكم اما بعد . .
فما كنا نحب ازعاجكم، لكنك ولدنا ونخاف عليك كما نخاف
على ارواحنا بالتمام ، فنعرفك يا محروس ان عريضه طلع من

السجن ، وحمع عليه مهران واد مخلوف وبالمثل الدقل ولد الحويج ، وعلمنا انهم سهروا مع بعض كام مرة . وقال عويضة انه مادام ابوك مات ميتة ربنا يرحمه الله ويرحمنا اجمعين ، يبق لازم ياخد تاره منك انت . ايوه منك انت يا محروس . وحلف على مصحف انه لا بد يدور عليك ولو كنت فى آخر الدنيا ، وقام طلق دقنه ، وقلب شال عمامته وحلف ما يحلق ولا يعدل الشال الا بعد ما يشرب من دمك ، واتفق معه مهران والدقل وسافروا من اسبوع قاصدين مصر . ولم يقدر راجل فى البلدة ان يمنعهم فانت تعرف عويضه وهو على حق فى نظر مشايخ البلد وأكابرها . ونحب اطمئنانك فنقول انهم لايعرفوا عنوانك فنحن لم نعط عنوانك لاحد من اهل البلدة لانهم ناس ألسنتهم طويلة كما تعرف ويخافوا من عويضه اشد الخوف . فنحن لم نعط العنوان لاحد البتة . خذ بالك من نفسك ، حماك ربنا ، ومن عندنا يهدوك السلام انجالنا فردا فردا ويهديك سلام خصوصى قريبنا ابراهيم خليفه واخوه فضل الله ، كما ان صاحبك السيد المهدى يذكرك على الدوام ، ودائما فى سيرتك .

وكل من بطرفنا يهديك السلام ، والسلام ختام .

جدك

سيد ابو الغيط

* * *

دائما وجه ابيه مهموم ، كان رجلا نحيلا رفيعا كعود البوص

اسمر جداً ، عيناه ضيقتان ، اذ يرجعان من السوق آخر النهار لا يجلس مع رجال القرية سواء من عائلة السماعنـة ، او عائلة الضبع ، يلقى السلام ويمـد خطاه ، عندئذ يضطر محروس الى الجرى ممسكا طرف جلبابه حتى يلحق خطواته ، ينظر وراءه نظرات الرجال معلقة بهما . فى مرة سمع احدهم يقول، مسكين ما دام عويضه خرج من السجن يبقى اجله قرب . رد شيخ كبير يومها . يا خسارة والواحد ما قادر يعمل عشانه حاجة واصل. يتضاعف الهم فوق الوجه النحيل . يلتفت الى محروس . يمد يده ، تلتف اصابعه الكبيرة حول اليد الصغيرة . يسرعان الوقت عصر . والطريق من المدرسة الى بيتهم قصير كله تراب . فوقه غبار وبرد وسكون . بوك . بوك . بوك . وابور الطحين ينفث آخر ما فى جوفه ، يسرع رجل يركب حماره . تنتشر فى الجو رائحة التوت . عند باب المـدرسة يقف ينتظر اباه . قال له : ما تمشيش لوحدك . تتغلغل رائحة التوت الى دمـه . حوم فى الفراغ طير . صوته كالضحك . كالبكاء . لم يعرف بالضبط . نبحت كلاب عالية عند اول الطريق المؤدى الى البيوت، رؤوسها عالية كالغيلان ، يجىء ابوه . يسرع والكتب تثقل عنقه . تتدلى فوق صدره . عيناه معلقتان بالشمس النازلة . تروح الشمس . ربما لن ترجع . لن تعـود . صحيح : من يضمن رجوعها مرة ثانية. تذهب ولا تجىء. عندئذ ان يضىء القرية بصيص ولو من لمبـة ساروخ . سيحبس ابوه نفسه فى صومعة الغـلال المثقوبة

الخاوية ويضمه الى صدره ويفترسها عويضه وتختلط الالوان الأزرق فوق الاحمر فوق خضرة شديدة السخا . من آخر الطريق ترتفع الارض فثمة كوبرى خشبى صغير يعلو مجرى الماء. فجأة ظهر. تصلبت قبضة أبيه. ارتجف قلبه كحمامة صغيرة صغيرة جدا ابتل ريشها بماء ثلجى. نفذت رائحة التوت المغموس فى اللبن الرائب الى صدره . توقف الأب . اقترب منهما طويلا. عريض المنكبين . كبير الرأس . على كتفيه عباءة سوداء . تحتها قفطان حريرى . ربما لونه احمر ازرق . ابيض ، اما انتفاخ العباءة فلم يستطع ان يخفى استطالة البندقية ، رائحة عطر تفوح منه ، همس الأب ، أشهد ان لا اله الاالله وان محمدا رسول الله انفرجت شفتا عويضه الغليظتين . ظلتا هكذا لحظات ثم تشكلت فوقهما ابتسامة لها لون كيزان الذرة الجافة المهروسة .

لسه . لسه . لسه يابن سلامه وقتك ماقربش .

لم ينطق ابوه ، لم يرد ، اما الشمس فنزلت صامتة بعد ان فارقتهما بلا سند .

ها .. وده ولدك محروس. بتوديه المدرسة كمان . والله عال والله عال .

عويضه ينقض فى عين النهار . يختطف الطفل وفى قلب غيطان الذرة يخنيه . يرسل الى اهله طالبا الفدية والمهلة يومان فى الثانية الاولى لاول دقيقة فى اليوم الثالث يصل الرأس الصغيرة

مقطوع الي الأهل . يعلو صراخ الأم .

عويضه يختطف اولاد البلدة . لا احـد يسأله . حتى الأم الثكلي لا تجرؤ ان ترفع عينها فى وجهه . لا احد .

لم ينطق الاب ، ضم « محروس » اليه ، فى الليل نبحت كلاب فوق البيت المجاور، حامت رائحة خبيز، الليل فوق البيوت كالمصيبة، كالجبل ، كالجبانة . اما وجه الاب فصامت لاينطق، صفحة كراسة بيضاء ، قال محروس والليل يغزو قلبه الصغير .

وساكت ليه يا بوى ؟

عض شفته ، ضرب جدار الصومعة الفارغة بيده، اهتز جسمه ورأى الصغير أباه جدارا يميل . غيط قصب ينكسر تحت زوبعة ، مركب يغرق ، جمل برك تحت حمل ثقيل . سكت ، سكت ، قال :

مافيش حد فى البلد يحمينى منه وانا عمري ماقتلت حد، عمري ما رفعت دبوس ابرة فى وش واحد .

فى السواد حملق اليه ، يد خشنة قبضت قلبه ، ضغطته .

امال طالبك ليه يا بوى ؟ طالبك ليه !

فى الصباح كانت الشمس عالية خارج البيوت ، الاب قد زاد فى العمر سنين . عند الجسر قابلها الشيخ محمود ناظر المدرسة .

ماتنساش فى البندر يا واد يا محروس .

من نافذة الحلزونة الخلفية المتسخة رأي اباه، يقف فوق الجسر

وحيداً . ثار الغبار. اختفى ، ثم ظهر. التوى الطريق ، دمعت عيناه وكان الرجال من حوله يثرثرون .

(•) (•)

طالبك ليه يا بوي ؟

انا طلعت من صغرى يا محروس يا ولدى ولقيت الناس بتشاور على وتقول انى مطلوب لعيلة عويضه ، ابوى قتل خاله من اربعين سنة ، قبل ماتولد وقبل ما هو ييجى على وش الدنيا. حتى لما كنا عيال صغيرين كان دايما يقول انا اللى حقطع جتارك يا ولد سلامه ابوك قتل خالي ، وانا اللى حاخد تاره . امه بخيته دايما وراه من صغره. دايما تقول له رقبتنا فى الطين وسط البلد. خالك ماتعملوش ميتم لغاية دلوقتى . خالك دمه راح هدر . المهم يا بنى انه كبر . سرق جاموسة واتحبس . خرج برضه وراه امه بخيته . كان يقول لصحابه انه حيموتنى بطريقة ماحصلتش . حيموتنى وانا عايش . ومن عشرين سنة وعويضه يخش السجن ويطلع. ألاقيه واقف عند الجسر باصص لي وهو ساكت . ييجى يخبط على فى الليل . اصله مفترى ما بيراعيش حرمة حد فى البلد . كل ما اقابله ألاقيه يقول لي . لسه . لسه يا ولد سلامه . الحقيقة يا محروس انا عدت اخاف عليك منه . دا وحش ما بيعرف ابوه ولا اخوه . انت شايف حد فى البلد قادر يرفع عينه فيه . حتى الشيخ صالح لما رحت له قال لي وانا حعمل لك ايه دية شريعة البلد يا فياض وبعدين هو عملك

ايه • عويضه لغاية دلوقتى ماهوبش ناحيتك • انا قلت فى عقلى يابنى ابعتك سوهاج تتـعلم هناك وبعدين تروح مصر • انا هنا عارف ديتها لـكن ذنبك انت ايه ؟

قال والليل يثقل كتفيه ويبلل لعابه بطعم السواد . وليه انا اللى حموت عويضه ! هو راعبنى انا بس ما هو موقف البلد كلها على رجل . مشيلها جالوس طين حد قادر يقول له كفاية . حد قادر يقول له انت بتعمل كده ليه ؟

* * *

ربما يجلسون الان فى مقهى ويعشون فى شارع من الشوارع اسبوع كامل تجوب نظراتهم الطرقات وتتفحص الوجوه، والملامح بحثا عن محروس ، محروس فياض سلامه . اسبوع ولا يحس. ربما مر بالقرب منهم ، مشي بجوار فندق ينامون به ، فى اي مكان هم يا ترى ؟ فى اي بيت ؟ اي حجرة ؟ فوق اي سرير تخفق قلوبهم اليوم الذى تنعكس صورته فى أعينهم ثم ينقضون عليه ! عندئذ يحلق عويضه لحيته . يعدل شال عمامته ، يذهب الى امه فى البلدة. تقيم مأتم الخال الذى لم يرتفع صوت نائحة عليه من اربعين عاما .

دار فى الحجرة ، نفذت الرطوبة الى عظامه ، فرقعة بومبة فى الخارج ، تصايح اطفال صغار ، وحوي ياوحوي . الجميع يخرجون الى الطريق بعد السكون الجامد الذى نزل فوق البيوت اثناء الافطار تناول ما تبقى من الرغيف وقطـع البطاطس الصفراء الصغيرة التى

تقطر زيتا ، اسند ذراعه الى عمود السرير الحديدي، هذه اللحظات الاولى من الليل ، بداية السواد ، البرد ، لا يطيق البقاء فى هذه المندرة الباردة الصماء الجدران . الحبلى برطوبة تقوس العظام ، تأمل مقدمة حذائه . بلاط الحجرة المربع الاصفر القديم الذي تكسر وتشقق وفصلتـه عن بعضه مجاري رفيعة سوداء . السقف العالي والاعمدة الخشبية التى تحمله ، لم يعدها من قبل ، كأنه يدرك لاول مرة ان سقف الحجرة محمل على تلك العواويد الخشبية ، ليس السقف فقط خمسة ادوار كبيرة . فى كل طابق اسرتان ربما . ربما احد سكان البيت قريب، قريب او معرفة لعويضه وجماعته ، ربما يأويهم عنده . لكن . لا . ليس معقولا ، بالتأكيد كان التقى بهم صدفة. انه يجتاز الباب الخارجى فى اليوم الواحد اربع مرات ، يخرج الى دورة المياه بالحوش ست او سبع مرات ، صحيح لا يفتح باب المندرة حتى فى الصيف فهو يعرف تماما ما سيقوله رجال البيت عندئذ . الأعزب الوحيد فى البيت كله محروس . لا ، بل فى الحارة كلها ، صحيح . من يسكن بمفرده فى الحارة كلها ، عطفة كفر الطماعين ، عندما زاره ابراهيم افندي زميله سأل المكوجى . سأل الاولاد . قالوا له :

ايوه . ايوه . محروس افندي ابو نضارة . نمرة حداشر . نمرة حداشر .

وقاده من يده ولد صغير . جاء الى المنـدرة . ألن يسهل هذا مأمورية عويضه . لو انه دار على حارات الجماليـة كلها . سأل اي

طفـل صغير . محـروس الصعيدى فين ؟ ايوه ياعم . جـوه ياعم .

خرجت انفاس ساخنة . ضرب راحة يده اليمنى بقبضته اليسرى الباب صامت يصغي الي زفراته المـكتومـة . لم يدر كم مرة راح وجاء في المدرة . لم يدر كم الف متر قطعها في هذه العلبة؟ قاسها بخطواته . ست ان أفسح الخطى . سبع اذا مشى على مهـل . قال ركن المرأة في جريدة قرأها منذ ايام ان ربة البيت التى لا تغادر دارها تقطع في اليوم الواحد سبعة اميال . شرع في ابتسامة ما لبثت ان تلاشت . كتلة الخشب خرساء - القفل وحيد وليس متينا - لا بد ان يشترى واحدا اضافيا - اما النافذة المطلة على الحارة فالقضبان الحديدية لاندع مسافة كافية للمرور من خلالها - لـكن، لـكن - يمكنه فتح الضلفة الخارجية - عويضه دائما يحمل مسدسا - عويضه تاجر مخدرات - عويضه لا يتحرك في البـلدة الا وتحت عباءته كارل جوستاف - اما في المدينة فلن يخلو من فوهة سعتها ٩ مللى ابدا - ابدا - ربما تسللت الفوهة من بين القضبان . السرير في مواجهة النافذة رأسا . ترى في اى مكان يبعده عنها ! المساحة ضيقة وشنطة الهدوم الـكبيرة الى جانبه تـكمل الفراغ . لو وضعه بالعرض لواجه النافذة اكثر . لو تمدد بالطول فهذا ألعن . فليتركه كما هو ولينقل المرتبة من فوقه الى تحته . مكان ضيق محكوم تحت مستوى النافذة بكثير . فلتظل الفوهة السوداء سعة ٩ مللى، فليطل المـيزر . لن يدركه . اما الباب فلا بد من قفل اضافي جديد . لو يسكن جار امامه . لـكن الفناء لعين . مخيف . مظلم . رطب . خال

حتى من لمبة ساروخ . المصيبة ان الدورة فى الطرف الآخر منه .
حتى قبل ان يجيء عويضه كان يبدو موحشا كالجبانة . كالخرابة.
عدا هذه اللحظات الضئيلة التى تبدأ عندما تخطو سلوى عتبة الباب
بقدمها وتقف امام باب المنـدرة وتصيح بصوت لين كأنه مضغ
التفاح او مذاق البيتيفور او الآيس كريم فى يوم حار . ياسماد .
تنادى صاحبتها . عندما خرج ورآها اول مرة لم ينس طوال يومه
وقفتها . يداها تحملان حقيبة منتفخة بالـكتب . على ظهرها تهتز
ضفيرة نحاسية اللون غليظة . اما عيناها فهما السماء فى يوم صيفى
حار . فى كل صباح ينفذ الصوت الى اذنيه . عندئذ يخرج، ويطيل
وقوفه امام الباب وظهره لها بينما يدير المفتاح فى الثقب الضيق .
وفى يوم من ايام هذا العام دار فى المندرة . وتصبب عرقه وتوالت
دقات قلبه كقرع الطبل . بلسان مثقل همس . صباح الخير. طول
النهار أحس انه حمامة خفيفة. شراع قارب صغير. ايشارب وردي
حول رأس حسناء يتطاير مرحا فى هواء ربيعى . صباح الخير .
وللمرة الثالثة ردت. لكن ماذا بعد ، قال له حسن صاحبه. كلمها.
ماتبقاش لخمة . لـكن البيت والجيران؛ ماذا يفعل ؟ الآن لا يعرف
ما تفعله سلوى ؟ فى هذه اللحظة بالذات . قام واقفـاً . لا بد ان
يخرج . الى اي مـكان ! ميدان الحسين يزدحم بالعربات . طوفان
ضوء يغرق الشوارع المحيطة به . فى الزحام يستطيع المشي متخفيا
لـكن لو التقى به فجأة ! الثلاثة . جدار أصم يطفح غيظاً وغلا .
طعنة بسيطة فى الجزء الامامي من الجسم ولن ينتبه احد. لـكن

حتى لو رأى عويضه . هل يعرفه ؟ من سنين . من الصغر . لم يره . لم يحملق اليه . كل صبى فى البلدة يعرفه . اما هو فنسيه . لايذكر غير عينيه الحادتين والرقبة الغليظة . والعباءة السوداء .

* * *

الجدة بهانة .

الله يقطعه طالع لابوه . جسمه طويل زي الجمل . كتافهعريضة ورقبته فيها دراع . طول النهار ماشي رايح جاى في البلد ما حد قادر يلمه . ما خلى مرة من نسوان البلد الا ومرمغ سمعتها فى الطين . مكسور الرقبة قعد ورا البت صفية لغاية ما رجعت فى يوم من الخلاء وحرقت روحها . داهية تخفس بيه الارض .

الود السيد . .

اسكتى ياددة أحسن حد يسمعك يروح يدله (يقول له) . . !

لبن زبادى . زينهم بائع اللبن. ليس بالتأكيد بائعا آخر. الحارة والهواء البارد . الليل المظلم ، هؤلاء الصبية الملاعين . لو انهم لم يكسروا المصباح، دخان خفيف، الفرن القريب يستعد لعمل الكعك لا احد خلفه فالحارة مسدودة من الناحية الاخرى. اضواء المكوجي تقترب . فجأة . فى هذه اللحظة . تلك الثانية . كأن انفجار دوى امامه . ابرة ثقبت رأسه حتى النافوخ . ضبع نهش بطنه وراح يلحس امعاءه على مهل ولا زال حيا . فجأة . ادرك ان حياته فى

خطر . كأنه لم يعرف هذا من قبل. ربما مات الآن. بعد ساعة، بعد يومين . حتماً سيحدث هذا . بل ان اى شىء يمكن ان يقع الان تستحيل البيوت الى ضباب ازرق فاقع . يطل لسان احمر مبلل باللعاب من شق ينفخ فجأة فى السماء . يتحول الناس الى ذرات صغيرة . ينفتح تحت قدميه ثقب يغوص فيه حتى يصل الى البلدة المقابلة على الطرف الاخر للكرة الارضية. اى شىء يمكن ان يقع . انغراس الجسم المدنى فى لحمه هو . عظمه هو، لكن متى، كيف . اين ، لا يدرى . عندئذ يغمض عينيه. ولا يطل على شىء فى الدنيا . ابداً . ابداً.

(٠) (٠)

بعد التحية .

نلفت نظركم الى انكم قد تغيبتم عن العمل خمسة أيام بدون تقديم عذر رسمى. ولما كانت اللوائح لا تسمح بالاجازة العارضة او التغيب المفاجىء . لهذا ننذركم بضرورة ...

مدير شئون العاملين

(٠) (٠)

بائع يانصيب يطوف بالمقهى والقش يملأ الطريق فى الخارج . يخفى قمة السور الكبير امام بوابة الفتوح . يتثاءب

الرجال فوق عربات الكارو الصغيرة . شرب ما تبقى فى كوب الحلبة المطحونة . صاح رجل . بصرة ، ضحك شاب ، مر الجرسون ، يرتدى جاكتة حكومية صفراء قديمة حاملا صينية كبيرة مثقلة بأكواب الشاى ، نفث سحابة دخان ، للمرة الثالثة ينظر الجرسون اليه ، ألصق جبهته بالزجاج . لا احد بالخارج ، حتى لو دخل هنا فان تنفذ رصاصته بسهوله ، هؤلاء العجائز والشبان لا يعرف واحد منهم لكنهم لن يتركوه يذبحه . وعويضه مجرم لكنه جبان فلن يقتل واحدا من ضحاياه العديدين وجها لوجه ابدا ، دائما تتسلل فوهته من بين أعواد الذرة ، من نافذة بيت ، لهذا قتل الكثيرين ولم تثبت عليه جريمة واحدة حتى اليوم. فى مواجهة الباب صورة قديمة باهتة الالوان مبقعة بهباب الفحم الدفين ، رجل يركب حصانا . باهت الملامح مضبع الوجه ، الف الف ليل ونهار خطا فوقها ، فى نفس المكان ، الجدار . امام المدخل ، لو ان الايام تمشى الى الوراء - ١٩٦٧و١٩٦٦ ، العام القادم ١٩٦٥ ، بعد عشر سنوات نصبح فى عام ١٩٥٥ ويكون البرج لم يشيد بعد ، وسلوى الحلوة الرقيقة لم تدخل الابتدائى. اما ام سيد الشمية فصبية ناضجة يترجرج نهداها اذا ما نفضت عن شباك بيتها غباره ، وتمضى اربعون عاما ويجىء ١٩١٥ ترى من سيولد قبله ويراه ، اى جنين يأكله الى هذه الايام . الشوارع الضيقة الرجال يمشون تحت البواكى . الفونوغراف فوق منضدة عالية . زبائن المقهى يتبادلون الضحكات ، المعلم فى الصدارة

ضخم . غليظ الشارب . يغنى شاعر الربابة . يتوقف . يتراهن الجميع من سيغلب ابو زيد ولا دياب . يصيح فريق ، أبو زيد . الفريق الثانى. لا دياب. فى شارع رئيسى ينطلق رصاص محموم يستقر فى لحم طرى وخناجر يرتدى اصحابها الطرابيش . الموت التام او . . بائع صحف يصيح اللطائف المقطم البصير يا جدع .

آه لو يرحل موغلا فى البعد اربعين سنة لو انه يملك اسطوانات قديمة تدور على مهل ، تتعثر الابرة ، تتوه فى ملفاتها العديدة . الاصوات صفراء رفيعة . هيه يا رائحة الزمن الذى لا يعرف فى اى ارض من أراضى الله أوغل وبعد . آه لو يرحل . هناك لن يرى عويضه لن يلمحه . الامان . الامان للمتعب المحكوم عليه بالموت حتما . راحة القلب المنهك الخافق المرهوش ابدا . اللوحة صامتة كأنها تقول : سأبهت ابدا . ان ترجع الوانى الى زهائها . صاح رجل معمم . تكاثف الدخان . فجأة . اقترب الجرسون منه .

- الاستاذ . يعنى لو سمحت حضرتك جارنا ولا . .

بلع ريقه . اى عقارب تنسل لتشهر زبانها فجأة . ماذا تقصد يابن الأفاعى . لم السؤال ؟تلفت حوله ؛ انحنى ، كاد رأسه يلامس جبهته .

- بصراحة يعنى . كده جدعنة ؛ يعنى فيه كام زبون هنا متعودين آخر الليل يلفوا كام سيجارة ، حاجة بسيطة كده .

عايفين لتكون من رجال الشعبة . وانت عارف الزبائن .
وعلى العموم المعلوم .
ـ لا . لا . انا جاركم هنا . انا مش من الشعبة .

اى حفرة وقع فيها ! جار لهم ؟ كيف يقول ذلك ببساطة. صحيح البيت بعيد لكنها نفس المنطقة. ما الذى يدريه ان سؤاله لا يخفى غرضا اشد فتكا . فليقم فورا ؛ ثلاث ليالى يجىء الى المقهى . لن يطيل الظهور فى مكان واحد اكثر من ليلة. العيون. يعرفونه ويعرفون عويضه ، كفت الايدى عن القاء الزهر . خرست طرقعة الطاولة . مجذوب فى الركن يحملق اليه . زحف النمل تحت جلده . ذرات الرمل الساخنة فى عروقه بدلا من الدماء . حسابك ! يرقبون ما تخرجه يده، سقط قرش، لم ينحن. الهواء بارد. بوابة الفتوح . سوق الليمون، رائحة الحنين الغامض المعذب . المئذنة سوداء غريبة . فوق السور فى الجدران حفر ضباط فرنسيون اسماءهم منذ مائة وسبعين عاما كأنهم يطلون عليه يخترقون ظهره بنظراتهم . حسابك ! وكأن الجميع ؛ كل من فى المقهى . فى الشارع ينظر اليه . اما الهواء البارد فثلجى موحش .

* * *

وارسل عويضه مكتوبا الى امه بخيته قال فيه انه قرب خالص منك . وكما اخبرها بان تستعد لتقيم مأتم على اخيها

فهو كما تعلمون لم ناحت عليه ندابة من اربعين سنة ، فرجاء تطمئنونا بكلمة لان عويضه جمل الشيطان ركبنا . ومن عندنا الجميع .

* * *

لو أصحابه عرفوا ما يهدده .

ها . اصحابه .

اى اصحاب. حسن ، لم يفترقا ابدا، السهر حتى منتصف الليل، العودة الى بيتهما فى الطريق البارد المصابيح فى نهاية الاعمدة الطويلة ترقبهما ناعسة، فى العصر قبل انتهاء النهار ، ما أحلى شارع الموسكى ما ان يتجاوزا شارع الخليج وتمرق عربات الترام الخضراء حتى يحوطهما الزحام، صياح الباعة: فانلات، شرابات التاجر بيفلس يا جدع البلوفز بثلاثين قرش ، من المقلة يشتريان الفول السودانى يهمس حسن بكلمات خافتة فى آذان الفتيات ، عند العتبة ينتهى الزحام ، يجره محروس الى سور الازبكية كل كتاب بقرشين ، أدب ـ علم ـ فلسفة ـ كله بقرشين المكاتب بتقفل ياجدع . رائحة العصر فى الطريق . عربات المدينة تمضى مسرعة أصوات موسيقى من دار الأوبرا . وسط الميدان يقف التمثال الرمادى ، كتلة من الرصاص جامدة واشارة من فارس النحاس بلا معنى . الى اين ياحسن . تنطلق المياه من النافورة

الصغيرة. الهواء ، الامان . يكلمه عن سلوى . بعد طول تردد قرر ان يكلمها . خرج من الباب كانت ترفع رأسها على وشك نداء صاحبتها اومأ برأسه. احس بها تنتظر شيئا ، فسألها عن مدرستها واين هى فقالت الحلمية الثانوية ، لم يدر ما يقول بعد ذلك ، كيف يدفع الحديث من جانبه ، سألها عما اذا كانت تذهب كل يوم. اومأت برأسها مخفية ضحكة. حقا لكم هو سخيف وهل هذا سؤال عندئذ يصيح حسن غاضبا . غبى كان السؤال الطبيعى متى تخرجين ثم تتفقان على ميعاد . حسن هو القلب الوحيد الذى يقتسم معه ما ينوء به . اين هو الآن فى اى بلدة اى شارع عندما وقف يتأمل الطائرة عن قرب بكى . عض شفتيه . لمح الطيار يقف مرتديا حلته الانيقة . سعيد هـذا الانسان الذى ينطلق بسرعة ألف كيلو متر فى فضاء نهائى سحيق . اين امانى الطفولة . فوق البلدة. لسبب ما تمر بين حين وحين طائرة يرفع رأسه . يجرى يتابعها . لكم ود ان يصبح طياراً . دائما يرسم صور الطائرات فى اوضاع مختلفة فوق منضدة قهوة فى مكتبه . بل انه يحتفظ بكتاب يحوى كل انواع الطائرات . جاء حسن مسرعا عيناه تضحكان . الليل حولهما عميق اسود ، غريب ، امتلأ الهواء المتسرب الى رئتيه بطيور صغيرة دقيقة مناقيرها مثلثة تنهش الكبد فى مخبئه الامين عندما تابع الجسم الصغير يبتعد فى الهواء لم يصدق ان هذه المساحة الضئيلة تضم (حسن) وسبع وستين من عمره . وقتها رأى بلاط الشرفة العريضة

سلاسل رفيعة مزقت جسمه اثقلت قلبه اطنان الحديد، قضى الليل كله ، زمانه فوق قبرص ، الآن نزل بمطار اثينا ، بعد اسبوعين وصله جواب . لن أنساك يا محروس . بعد شهرين . انا سعيد يامحروس . أرى كل يوم ناسا غير الناس . احن اليك ولكنى هنا حمامة لا قيد لها . ومن شهر لم يصله المظروف ذو الطوابع الاجنبية لن أنساك ، ابدا نسيه . ذاب حسن فى بلاد الثلج والضباب، لكم اشترى مجلات اجنبية ربما رأى حسن في صورة شارع مزدحم . ابدا لن يراه لا يعرف حسن اي دقائق تمر عليه فتصرع روحه فى كل ثانية من ثوانيها الستين لو معه الآن لأقام عنده لو سافر معه لما اهتدى عويضه اليه ابدا ، زملاء مدرسة الصنائع تفرقوا فى البلاد وابتعدوا ،قابل ابراهيم، شاربه كثيف، انت فين . لازم نشوفك . اتفقا على ميعاد . لم يذهب بالتأكيد هو لم يذهب ايضا، لو قابله الآن ، وقال له ان عويضه يطلبه ، يتعقبه قطع ستمائة كيلو متر من أقصى الصعيد ليبحث عنه ، سيبدو الخوف في عينيه يتطلع الى البنايات المحيطة. النوافذ، ربما يطل عليهما عويضه من مكان ما ، يتسمعهما بأذنيه الحادتين . فى حقول الذرة وسط وشيش الريح يسمع بهما خطوات الاقدام على بعد اربعين ذراعا ، سيجري ابراهيم . هكذا كلهم عدا حسن، حسن الذي راح ونسي حتى الخطابات، لو انه سافر معه، ركب البحر ، يبتعد عن الارض التى يجوبها عويضه ينزل فى الموانى البعيدة . يرى وجوها غريبة نسمات هواء على شاطىء بحر ازرق عميق ينبض كالرئتين، الاطفال

كالارغفة الساخنة الطرية . اصابعهم فى افواههم . الطائرة تنتقل من مدينة الى مدينة . . . سيدانى سادتى وصلنا . بعد قليل سنهبط فى . . لكن لا أمل فى رؤية هذا . سيظل يرى نفس البيوت ، الشوارع ، الناس يجول بينهم عويضه . لن يلحق حسن ابدا ربما انقض عويضه الآن . انه لا يصدق وجود هذه البلاد الغريبة.صور الجبال المكسوة بالثلوج البيضاء كاللبن زائفة . لا بحار واسعة تعجز العين عن رؤية آخرها . أوهام بحارة عجائز سافروا ورجعوا بلهاء مجانين . اما حسن فاختطفه الطائر الحديدي ليغوص به فى فراغ عتيم ليس من المعقول انه فى مدينة يطلع النهار عليها الآن وهو هنا تحت السرير وعويضه يجس المدينة بستة عيون وستة آذان لاوجود لمدن يمرح الربيع فيها لارجال قصار يرتدون الفراء يعيشون فى الثلج . الصور وهم . الخيالات المتحركة بهجة مزيفة لممثل مسلول . الحقيق ، الصلب كالجبل ، كغيطان القصب. الموجود عويضة ينهى كل شيء فى لحظة - يمحو الضحكات والدموع وقلق الليالي وفرحة القلب عند رؤية سلوى . كل ما رآه . قبل انطلاق المدفع دخل الحارة ربط الحذاء والتفت الى الوراء،لا أحد - عند المنحنى قبل الفرن ، يقف رجل عجوز طاقيته تغطى رأسه تنزل حتى عينيه . جا كتته بنية اللون تآكلت عند الكوعين . بشرته ملساء كأنها ستنفجر بالدم . يسند يديه الى صندوق صغير مصمت الجوانب سطحه زجاجى، قوائمه اربع رفيعة عالية .صاح طفل،القت امرأة بمياه من طابق علوي . هذا العجوز لم يره من قبل . حملق

فيه.عيناه لا تتحركان. مفتوحتان واسعتان. لكنهما لا تتحركان كأنه لا يشعر به . ربما يتصنع . نزل العرق من جسمه . بدا الصيام له قاسيا قاحلا . امتلأ حلقه بقشر سمك كاد يصيح فيه من اي ارض هو . هل هذا وقت يبيع فيه الناس . اندفع فجأة صبي عرفه. يوسف ابن زينب التي لا تشبع عينيها ابدا . بتعريفة حمصية يا عم حسين . اهتزت رأس عم حسين . كاد محروس ان يصرخ خوفا عند ما سمع صوته . صوت رفيع رفيع جدا كخيط نحيل ومتسلخ. حمصية ولا سمسمية . جالت يده داخل الصندوق .اخرج قطعة الحلوى المرصعة بالحبات الصغيرة الصفراء عاد يحملق فى الهواء، على وجهه ابتسامة سخرية؛ استهزاء . وفجأة رفع يده. قبل باطن يده وظهرها عدة مرات .اهتزت دماغه .اندفعت الدماء الى قلب محروس هذه الحركة . ملأته بقشعريرة كالصداع . يوسف الصغير ينظر اليه انتبه اليه . امسك يده . مين ده يا يوسف ، عم حسين . دي اول مرة يقف هنا . ابدا طول عمره ساكن هنا . بس ما كانش بيطلع من أوضته تحت السلم ابدا . مرة اخرى عم حسين يقبل يده. ضرب الارض بحذائه ، اغلق باب المندرة جيدا . عاد يتأكد من اغلاقه . زعق راديو. موسيقى كئيبة حزينة . فى البندر كان يقف على سلم المحطة. السلالم عريضة والرجال يجلسون القرفصاء. امامهم مقاطف وصفائح وصناديق منبعجة وقلل فخار . عابروا الميدان قلائل . المقهى الكبير فى مواجهة المحطة باهت الطلاء يتصدره اعلان قديم . سجاير سمسوز . معدن كوتاريللى . ومضت بقرة

بنية اللون . سمينة تعبر الميدان متمهلة. صفرت قاطرة ، نزل هدوء غريب كأنه الصقيع فوق الغيطان آخر الليل. من احشاء الحواري. موسيقى لونها نحاسي . طويلة كأنها آخر زفرة لطفل يرحل عن البيوت والخضرة ،تخفت ، تعلو كالنحيب، انقبض قلبه، مصمصت النساء شفاههن . بدا رجال قصار يلبسون أردية صفراء ويحملون ابواقا نحاسية كبيرة . يضعونها على افواههم لحظات فيحوم النحيب وينبض صداع القلوب ، يخفضونها فيسمع نواح النساء الماشيات وراء الرجال . اغمض عينيه عندما رأى الميدان خاليا ، فوقه صفرة غريبة . اما الهواء فدسم كماء مباخن . فى هذه اللحظة دخل القطار المحطة . لايدري الى اي البلاد سافر يومها ، ولا اي شخص يجلس الآن فوق المقعد الذي أسند ظهره اليه يومئذ . اين راح اليوم نفسه. النهار الزجاجي . الآن يقول انه ربما لم يمر يوم كهذا ولم يمت احد. اي شيء يعلمه عن حال الجثمان المدفون من سبع سنوات ، اليوم الاول كما هو . الثانى تجحظ العينان وتنتفخ العروق ، ينزل حارس القبر ليسرق الكفن ، فى الثالث تعلو البطن وتنمو آلاف المخلوقات الصغيرة لتأخذ نصيبها من الحياة . شد الغطاء حتى عنقه . تأمل خشب السرير والمرتبة ، أمن المعقول هذا ! فى يوم معين . لحظة بعينها يغمض عينيه ولا يفتحها ابدا . ابدا . لن يسمع ولن يرى. اما هو فما أقرب اللحظات . لن يكف الوريد عن ضخ السائل الاحمر فجأة . لن تخرج الذبابة الزرقاء، ترفرف بجناحيها ليتلقاها ملائكة اليمين والشمال فيسألونها الحساب . عويضه هو الذي يحدد

ميعاداً لكل هذا . ترى هل عرف البيت ام لا ؟ اما هذه الليلة فلم يمر أبرد منها طوال الشتاء . ينتهى رمضان لساعاته ، مذاق غير المذاق . كم مضى من الليل ولم يتبق عنده أكل للسحور . يجىء زينهم بعد قليل ويشتري منه سلطانية اللبن . صوت خطوات ثقيلة ، رفع رقبته . أصغى . الوقع ثقيل . لم يتعود سماعه فى مثل هذا الوقت . كل ليلة ، هل هو الحذاء الاسود والرقبة المحلاة بقطعة استك صغيرة تبيح للقدم الغليظة ان تنزلق داخله . ازدادت الخطوات وضوحا . اين المخرج ! النافذة . القضبان الحديدية . دخل الحذاء باب البيت فى الفناء . تردد امام الباب . صمت . بلع ريقه . أرهف اذنيه محاولا التقاط صرير البلاط تحت الثقل المخيف نزل سكون قاس . حد سكين . ماسورة ميزر . اين راح ! ربما ينتظر حتى يحين الفرصة . آلمته رقبته المتصلبة . السرير يخنقه . خرج من تحته على مهل محاذراً ان يحدث صوتا ولو ضئيلا . فجأة توالى صوت عصا تصطدم بجدران البيوت . فوق النوافذ . صوت عجوز كالماء البارد فى يوم حار تسرب اليه .

- وحد الله ياعم سيد . ياعم صالح وحد الله . ياسي سعودي . يا عم نادر وحد الله . يامحروس افندي .

لا . لا داعى . قفز ناحية النافذة ، صاح من ورائها :

- عم عبده . عم عبده .

نزل صمت لحظة صوت الرجل من الخارج متسائلا ، اجابه بصوت خال مرتجف :

- مافيش داعى تنده اسمى . انا دايما صاحى . و . عديتك محفوظة .

بدأ العجب فى صوت الرجل عندما اجابه موافقا، لكن من يعلم . ربما لم يكن هو صاحب الخطوات . ربما لم يهتد الى البيت . ربما تصادف مروره يسمع النداء . عندئذ يكون سلم نفسه اليه . امض . امض يا عم عبده .

- وحد الله . وحد الله يا نايم .

* * *

توقف حسين المكوجى عن العمل . سأل صبيه .

- مش محروس افندى اللى دخل ده من شوية .

- آه . افتكرهو .

لوح الاسطى حسين بيده .

- نسيت اقول له ان واحد سأل عنه ، ابق فكرنى اقول له .

* * *

- فيه سبانخ وكوسه وبسلة . وفيه مكرونة بالفرن وكباب وكفته :

الدخان يحمل رائحة اللحم المشوي . المريلة البيضاء الكتابة فوقها بحروف حمراء متسخة . مطاعم الحسين . الجالسون فى المطعم قلة . هذا العجوز بجوار الجدار . امرأة بيضاء فستانها أخضر . ورجل أقصر منها يجلس أمامها فى الطريق الخارجى. شبان يلوحون بايديهم يغنون . عويضه لا يأكل الآن فى المطعم . ليس بين الموجودين . ربما يقف على ناصية الطريق يرقب الشارع .

لكنه ليس بالداخل .

ـ أيوه يا استاذ .

لازال ينتظر . أي شيء يأكله ! من ايام لا يعرف غير الجبنة والحلاوة الطحينية .

ـ سبانخ . أرز .

الوجوه تتابع . الاضواء فى الخارج .حمراء وزرقاء وخضراء. خادم القهوة المقابلة يروح ويجيء بسرعة . الزبائن يتكاثرون، سحابات البخور والضباب تتصاعد لتملأ الفراغ .

عربات الباعة الصغيرة تصطف على جانبي الميدان . المئذنة الرشيقة تطعن الفضاء . لو وقف فوقها لاستطاع رؤية كل آدمي فى المدينة . فى البلدة يصعد الرجل ليجنى البلح من النخيل. يطلق صوتا ليحذر الحريم فى البيوت المحيطة المنخفضة . أما عويضه فلو انسرب الي المئذنة واستند الي الحاجز الحديدي. سيعرف اين

يخطو ! كم مرة تنفس فى الثانية ! كيف ينبض قلبه ! الامنية التى تجول بعقله . توعية الذكرى . أهل البلدة يعرفون ان عويضه يلم بكل شيء عن ضحيته قبل انقضاضه . عند ما قتل الاعور جادالله كان قد اختار التوقيت الذي يتمدد فيه بين ذراعى امرأته سعده التى كان يشتهيها ويشتهى مصاغها . لن يغيب اى شيء عنه، هكذا يعلم الجميع .

تلفت حوله - الطبلة والمزمار من الطرف المقابل للميدان . طلبة يزعقون - يضحك شبان حوله - شنبو يا شنبو - يهزون خصورهم . نظر اليهم وقرض شفته - كان يقف على قنطرة صغيرة والماء يتدفق هادراً من تحتها - اضحكوا هزوا أردافكم يا من يماثل تاريخ ميلادكم ميلاده . التصقوا بالبنات ؛ أحقيق انكم بعيدون عن عويضه ؟ لو أعجبته ساعة فى معصم أحدكم لتتبعه وقطع يده . لو اشتهى صاحبة واحد منكم لاخذها فى وضح النهار والشمس تغلى فى السماء ولن يجرؤ أحدكم على هز أصبع فى وجهه . صاح منادى العربات - نزل رجل طويل حول رقبته كوفية حمراء منقطة بدوائر بيضاء - دار برأسه - رفع المنادى يده بالتحية - أشار الرجل الى البيوت القديمة القائمة عند ضلع الميدان الشمالي :

ـ ايه ده ياريس !

ـ دى بيوت يا سعادة البك .

هز رأسه. ابتسامة تودد على وجه المنادى. أشار الي المجذوب

حامل وعاء البخور .

ـ ايه ده يا ريس ا

ـ دا بنى آدم ولا مؤاخذة مجذوب يا بك .

ـ هيه ، الى الحسين ، أين غاب عنه ، من سنين لم يعرف الطريق الى هذه الهدأة السكونية التى تلفه منذ مئات السنين ، على بعد خطوات منه ولم يدخله ، لم يقبل مأوى الرأس المفصولة عن الحسد والتى طارت من كربلاء الى مصر مدة أربعين يوما لتخفيها ام الغلام المسكين الفقيرة وتفتديها برأس ابنها ؛ عويضه لن يقبل الفـدية ولو كانت خزائن قارون وكنوز سليمان الحـكيم، كيف يرفع رأسه وسط الناس ، لا بد ان يجز عنق محروس .

المقصورة مغلقة . فوق الباب الحديدى المزخرف وورود حمراء كبيرة ، بالمدخل هدوء غريب نفذ حتى نخاعـه ، فى حائط الباب الاخضر خارج المسجد شق لا يروح العطر منه ، قال الشيخ العجوز ان الرأس حط هنا بعد رحلته الشاقة . ومن يومها والعطر الحزين لا يفارق المـكان ، قال الشيخ الحزين ايضا لو كشفوا عن الحسين الآن لوجدوه على حاله ، ملأته دهشة. أكد الشيخ ما قاله. ها هو يرى سيد الشهداء ، رأسه الحبيبة الطاهرة الذي لم يكف عن ذكر اسم الله طوال رحلته . بداخل المقصورة يسيل الضوء ناعما وقورا، انه يرى سيد شباب اهل الجنـة ، هذه الخضرة بجوار الحبيب ،

تحت السقف العالي المرتفع ، هنا وليس فى اي مكان آخر لن يستطيع عويضه اللحاق به . فليدخل ، الحبيب سيصفح عنه، يغفر له ، انه ظل سنوات يمر كل يوم اربع مرات او ستة ولم يدخله . بل لم يفكر فيه . الآن لن يغادر المكان ، بالداخل امان لن يعرفه الا هنا . بجوار الجسد الذى لم تجف دماؤه ، ولن تجف حتى ينفخ النفخة الثالثة فى الصور ، نفخة طولها اربعون الف سنة ، يعقبها صمت اربعين الف سنة ، وينفخ نفخته الثانية ، ثم يجيء نفس الصمت حتى ينفخ النفخة الثالثة . لكن الباب موصد ياسيدالشهداء المقصورة مغلقة يا عصب العين ، يا صاحب الدماء الزكية ، يا ربان السفينة . عويضه يسعى وراءه ، يقتفى رائحتـه ، يتسمع صوته ، همسه ، حركاته وسكناته ، عويضه يقتله فى هدوء ، قم يازينة شباب الجنة ، يا ملجأ الشاة المذعورة من الذئب ، يا نور الارض، يا علم المهتدين ، يا مرساة الأمان ، يا نهاية الغربة ، يا مأوى المسكين ، محروس يناديك انت ، ايوه ، قتلوا ابنك فى حجرك بعد ان منعوا الماء عنك . جرحوك مائة وسبعين جرحا . ذبحوك واجتزوا رأسك وداسوك . آه لو يدخل فلن يفارقك ابداً ، ولن يقوم من جانبك وفى كل عام ، فى نفس ميعادك ، يقيم الندب عليك سنة بأكملها حتى تبعث حياً . لو يدخل . لو يستكين . الباب موصد .

المنبر الخشبى زخارفه صماء . بكى . يد تقبض قلبه كأنه صبى صغير تركه اهله ونزل عليه الليل فى الخلاء بعد ان دخلوا الملجأ

الأمين . قعد بين الرجال . الجميع يحملقون الى شرفة خشبية عالية . لم ير شيئا . الجميع صامت خاشع . مال الى الجالس بجانبه يستفسره . قال الرجل وكان عجوزا جدا . جبته قديمة . قفاه نحيل ، يصلبه عرقان غليظان جافان .

- مقرىء جديد صوته احلى من صوت عبد الباسط .

- ياه . منذ متى لم يكلم احدا . كأنه يحرك لسانه بيده .

- يا ترى حيقرأ سورة ايه .

لم يرد الرجل . النجف الثقيل ينوء به السقف الملون . رجل يحمل قربة ماء ويمسك اكوابا نحاسية ، تناول منه كوبا تسربت برودته الى لحمه ، ما ألذ الماء فى هذا الوقت من الشتاء نهاية العام ، اوما الرجل شاكرا ، عاد يتتبع زخارف السجادة المعقدة المتشابكة ، رفع رأسه . الرجل يحمل قربته ، ينظر اليه غاضباً .

- تعريفة يا أستاذ .

كالملسوع انتفض ، بحث فى جيبه عن القطعة المعدنية الصغيرة . انصرف الرجل مبتعدا . يا كريم . الكل يحملق ناحية الشرفة الخشبية . المريضة . لا صوت ، وقف ، اى ضجة ثقيلة فوق ارض الشارع ، الطريق مغطى بالرؤوس نزل تحت الرصيف الى أين ؟ البيت ! المخبأ ! تحت السرير ! ربما ينتظره بجوار دورة

المياه خارج المندرة ، ربما عند الناصية . لا يعرف الى اى الناس تنتمى هذه الملامح التى وصفها له حسين المكوجى ، لكن هذا الغريب رفض ان يقول اسمه ، بل وسأل عن ميعاد دخوله وخروجه . لابد انه ينتظر والزحام سيتلاشى بمجرد عبوره حاوة الوطاويط ، تصبح الشوارع وحيدة قاسية شرهة الى الدماء تماما كما سيجد ميدان الحسين ثانى يوم العيد . تذوب كل هذه الضجة ، كثيرا ما عبره فى الليل . يبدو مقسما خاليا تماما ؛ الا من شحاذ يفترش رصيف الجامع . بائع ابن يغلق بوابه . لكم يبدو الحسين وقتها وحيدا عجوزا تثقله آلام سنين طويلة من الغربة ، آه لو ان المقصورة مفتوحة . الف الف سنة والرأس لم يلتق به ابدا ابدا ابدا . اما عويضة فما اقربه لن يرجع الى المندرة سيمضى بين هؤلاء حتى يبدو النهار الازرق، مضى حول الميدان، لو ملوى معه ، اى امان يحوطه؛ أى مشاعر تريحه ، منذ شهر وكانت انفاس الخريف تحتضر امام زحف الشتاء القاسى. رآها تعبر الميدان بمفردها متجهة الى محطة الاوتوبيس ؛ صمم ان يكلمها ، تردد امامها كثيرا . اندفع وتدفقت الدماء من قلبه الى اقصى اطراف جسمه ، ركبت ، ركب ، نزلت . كاد ان يحاذيها بقرب هذه الحديقة الصغيرة . عندما تراجع فجأة ، كأن يدا لطمته ، تهاوى على المقعد الرخامى وراح يرقبها تبتعد ، ذراعها فى ذراع شاب . ربما يشبهه . ربما لا يقل عنه . اى عجز ثقب قلبه . الوقت عصر والشمس فوق النيل لا تبين . عبر الكوبرى .

اى وحدة مرهفة كسن موس مصقول آلمته حتى حس راح . لو معه لحكى له ما هز قلبه . لكنه بعيد . وسلوى نائية مثل كهوف الجليد ولا اصدقاء . لا شيء غير وجوه غريبة تمر حوله ضاحكة زاعقة . هامسة . حتى المندرة بعيدة . لا يجرؤ على الرجوع . لكن الى اين ؟ هل صدمه احد ؟ رجل عريض طويل . جلباب بلدى . معطف وبر الجمل . ابتسامة خفيفة على وجهه ينظر اليه . لا يذكر ملامح عويضة . لكنها اوصاف المكوجى . التفت وراءه . غاص قلبه . اين الرجل ! لا يعرف عويضة . لكنه سيشم رائحته . عويضة قريب من هنا . ربما داخل واحد من هؤلاء . الخطاب فى جيبه من البلدة يقول ان اللعين ارسل امه يأمرها بتجهيز مناحة على الخال المقتول من زمن لم تعرفها كفور ولا نجوع البلدة منذ الف عام . اين هو . اين ! تزايد اندفاع الناس حوله ، دار حول الضلع الشرقى للجامع الموازى لحارة ام الغلام . ابتسم معلم شاربه ضخم كبير طرفه مرفوعان الى اعلى . داخل فمه اسنان ذهبية ولسان احمر يهتز اهتزازات صغيرة سريعة . صاحت امرأة على رأسها صف من ريش . اشترى منى بخور . صاح مجذوب يرتدى جاكتة عسكرية قديمة مليئة بالانواط والشارات وقطع قماش صغيرة . ورفع سيفه الخشبى الاخضر والمكتوب فوقه . لا اله الا الله . زعق فى الناس . اين عين الخلد ! مد شاب ذراعه . احتضن صديقه . تراجع الى الخلف ليتأمله . يا راجل من امتى ما شفنا كش .

خبط البائع على طبلة بنية اللون مزخرفة الحواف . قال للشاب الذى يرتدى قناعا ورقيا يمثل قرصانا . دى نغمتها ترقص اجدع ست فى البلد . مد الشحاذ يدا واحدة سليمة . سبع عيال وامهم يا بك . طوح شاب يده . فاحتكت بردفى بنت قصيرة ممتلئة . تنهد فى قوة . شاب اسمر طويل يهز وسطه ويلعب حاجبيه . قال بائع الكتب . بجنيه وعشرين فى المية تخفيض يبقى ثمانين . اللافته على السرادق الكبير . دخول عمومى بثلاثة قروش . فوق الرصيف اقترب منه طفل صغير ابيض حلو العينين ، قال بصوت هامس . عاوز نسوان يا بيه . ضعف الضوء حول المئذنة صرخ . جل مقلدا صوت امراة . تطايرت رائحة الكباب من مدخل خان الخليل . النافورة الرخامية خرساء جف ماؤها . الرجل قريب منه . لكنه لا يراه . اين ! صوت المطربة سيدة أم السعد صاحبة السرادق المطل على حارة الوطاويط ، توقف غناءها . تتابعت الاصوات . والمعلم . و . والاستاذ وانا وانت سلام كبير قوى . هل يسمع اسم عويضة ابدا ! عويضة لا يدخل سرادقا يعلم انه ليس موجودا به . اللعين قريب منه . لكنه يعذبه . يعرف اهل البلدة المساكين عاداته ، لا يقتل ضحيته مرة واحدة يتركه فى متناوله حتى اللحظة التى يحددها هو ، وهكذا يعيش كل مزارع صغير او صاحب بقالة او صاحب جمل فى البلدة . وهو يظن ان عويضة يطلبه هو وعينه على ماله ، لهذا لا يجرؤ واحد على الوقوف امامه او ذكر اسمه بصوت مرتفع . بالتأكيد

عويضة قريب جدا ، لكن اين ؟ لا يعرف ، ربما العينان الضاحكتان الناعستان الصوت الناعم . الآذان المرهفة . ابتسامة البائع الزائفة . غضب جندى المرور . مساومة البائع . شهوة المراهق الى لحم امرأة . حتما هنا . الميدان كله يعرف ولا يعرف ومع هذا يضحكون ويتمايلون ويشترون الطبل ويرتدون أقنعة الريان بلود . عويضة هنا . أفهموا . أحقا انكم لا تعلمون . ابدا . ابدا . حتى ساعى البريد الذى حمل رسالات الجد ابو الغيط . كان يبدو عليه انه يعلم مما تحويه الخطابات ، فوقه السماء لا تبدو من الاضواء . آه لو انه فى مكان ناء ، لو هناك حياة غير الحياة لو عاش انسانا آخر فى عالم ثان .

لن تمضى غير دقائق وثوانى يشق الزحام ، تخمد كل هذه الضجة ، يسكت الشباب الذين يرقصون التويست ، تظل سيقان النساء مكشوفة بلا حقائب تغطيها ، عندما يقترب منه سيشيرون كلهم ، لكن لن يرفع واحد منهم صوته باحتجاج ، لكن لا بد ان ينبههم قبل اقترابه ، لا بد ان يوجد شخص ما فى هذا الزحام يحميه ، لم يخلق الله عويضة بمفرده ، لا بد . لا بد . دار رأسه تصبب عرقه غزيرا يائسا . من يوقف فى الزحام ، السكل لاه . يضحك يغنى . أقشعر جسمه . زحف تحت جلده نمل شائك يخز عروقه ، تلفت وراءه وامامه ، الى اليمين والى الشمال . ثمة ذبابة تطن بجوار اذنه ، اى حشرة يسمع أزيزها فى الطوفان ، أهى روح امه أم أبيه؟ يقولون فى البلدة ان روح الميت ، اذا

ما حدث الى شخص حى، بدت فى هيئة ذبابة زرقاء شفافة الجناحين لا يراها ، لكنه يسمع الأزيز . ابتلت ثيابه من العرق الغزير ، اعتلى قاعدة النافورة ، عبر المسافة الضيقة التى تفصله عن الزهرة الرخامية التى تتوسطها . انتبهى يا غابة من رؤوس سوداء ، لا بد ان يعرفوا اي خطر يكمن بينهم . يتهدده اي سكين، تكاد ان تلامس رقبته ! لا بد يا غابة الرؤوس السوداء والعيون والانوف والضوء الازرق والاسنان الذهبية ، ووقع الخطى فى جوف الليل. لا بد ان يشعروا به ، يتنبهوا اليه . رمى جا كتته فوق الرصيف ، لوح ببطاقتــه الشخصية ، زعق باعلى ما يمكن لاوتار حنجرته ان تخرجه .

ــ انا واحد وثمانين سنة وستين . جمالية .

طوح بالبطاقة ، فليلتقطها عويضه ، فليعرفه ، فليرجه، فليقبل ان لم يجدوا احدا من الزحام يعذمه فلامانع بعد اليوم ، ولا عاصم . انتبهى يا غابة الرؤوس السوداء ، يا معرض العيون المترجرجة الزجاجية .

أشارت سيدة انيقة جدا ترتدي فستانا اخضر قصيرا جدا .

ــ لوك يا حليم . الراجل باين عليه حيلعب لعبة .

ثم مضت ، رمى آخر قطعة من ثيابه الداخلية فى اتجاه المسجد، تكاثف الزحام ، اشار اليه شبان ضاحكون . الذبابة تطن من جديد، اي صوت آخر سمعه ، لم يدر تماما ، بكل مانبقى فى خلاياه من قوة صاح للمرة الاخيرة .

ـ انا واحد وثمانين سنة وستين. انا واحد وثمانين ستةوستين.
جمالية .

الجميع يعضون ومجموعة شبان يرفعون عقيرتهم بالغناء . شنبو يا شنبو . لم يشعر بوخزان البرد التى تلسع لحمه العاري ، لم يدفع عنه احد. ما يهدده ، توالى وقع طبل سريع متوتر محموم يوشي بجسم راقصة يتثنى ، كأنه سمع ضحكة هازلة تخرج من فم سمع أوصافه من حسين المكوجي ، عاد طنين الذبابة ، دفن رأسه فى صدره ؛ وانحنى حتى كاد جسمه أن يتقوس ، وسمع عويضه يشق الزحام واثقا ، ثقيل الخطى لا يوقفه احد .

هداية أهل الورى لبعض مما جرى في المقشرة

... اطلعت على هـذا المخطوط منذ شهور فى خزانة كتب احد الجوامع القديمة بالجمالية، وأثارنى بغرابة موضوعه ، اذلايمت الى اي من المسائل المتعلقة بالفقه او الشرع ، حيث تضم هـذه الصفحات ذكريات آمر السجن الذي عرف فى عصور المماليك الغابرة باسم المقشرة ، وكثير من صفحات المخطـوط مفقودة ، .غير انى أثرت نشر ما وجدته لندرة مادته وغرابتها،ولم أتدخل الانادرا كذا لاحظت انالمؤلف لم يحدد عصر السلطانالذي تولى فيه أمرة المقشرة . غير انى ارجح انه كان زمن السلطان الأشرف قايتباي . او الاشرف قانصوه الغوري ، آخر سلاطين المماليك. واعلالقارىء او الباحث يجـد فى هذه الصفحات ماده مفيـدة وصفحات هامـة لبعض مما كان يجري فى مصر خلال هذه الازمان البعيدة . غفر الله لنا ما تقدم وما تأخر من ذنوبنا .

رب يسر وأعن .

اغفر ذنوبنا ياسلطان السلاطين،واستر عيوبنا يا ارحم الراحمين، اياك نعبد واياك نستعين ، اللهم صل وسلم على سيد المرسلين الذي كان نبيا وآدم لم يزل بعد بين الماء والطين وعلى آله وصحابه أجمعين.

اما بعد .

فلما كنت قد توليت احدى الوظائف الغريبة فى زمانى ، التى اخدم بها مولاي السلطان ، ونظراً لما وقع لي من حوادث غريبة، ونوادر قد تبدو للبعض أليمة وللبعض ظريفة ، ولما كنت أقضي

جل وقتي في المقشرة ، قلت فلأخط شيئا مما أراه وما أسمعه ، ومن يدري ، ربما قرأ مولاي أشرف زماننا ما كتبته فيعرف الى اي حد تمانيت في وظيفتي وذقت فيها الألم ، وكدت أرى منها الهلاك ، عندئذ يرق قلبه ، وينعم على بتقدمة ألف او ربما دنانير من بعض جوده ، واعلم غفر الله لنا اجمعين ، ان السجن الذي انا آمره ، يقع بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين جامع الحاكم بأمر الله، وسمى بالمقشرة . لانه أقيم موضع كان يقشر فيه القمح . والعامة والسوقة والمشايخ وجميع اهل مصر يقولون انه من أبشع السجون وأشدها هولا . يقاسي المسجونون فيه من الغم والكرب ما لا يوصف . والذين يقولون عنه هذا لم يروه من الداخل فكيف بهم اذا دخلوه . ولو مر الرجال والنساء من جواره لقالوا سراً أو علانية وهم من بنائه يبتعدون ، اللهم عافنا شره وبلاءه . واسمعهم يقولون هذا فأسخر منهم . لا يستبعد واحد منكم نفسه عن المقشرة. ربما اليوم وسط عيالك والي جوار امرأتك ، وفي الصباح في اسفل طباق بالمقشرة .

وفي بعض الليالي التي أقضيها هنا أضيق بوجودي وبنفسي . في النصف الثاني من الليل يكون الهدوء غويطا كالموت والظلام مخيفا حتى للذين الفوه. واسمع اصواتا تجيء من الاحياء المجاورة. لا يبين فيها صوت الرجل من صوت المرأة . ولا تفسر منها كلمة. اقوم متجولا حول السور الذى يعلو البناء . اذ اقترب من منتصف السطح اسمع هسيسا . اصوات رفيعة ممطوطة يقشعر لها البدن .

من هنا يبدأ سلم حلزونى هابطا الى عمق كبير . على جانبيه حفر ضيقة فى الجدران . لا يتمدد فيها الانسان على راحته كما لا يمكنه الوقوف بطول قامته . هذه هى المواضع التى يربط فيها المحابيس . وربما نزلت من حين الى حين يتقدمنى السجانة ينيرون السراديب . واسأل نفسي ما الذي يفكر فيه شيخ قضى هنا ما يزيد على سبعين عاما . او شاب مضى عليه عامان . اتأمل وجوههم . أداعبهم وربما ضربتهم فجأة وصحت فيهم انه لا امل لهم يرجى . فالوجوه تبدو كريهة ممقوتة . واذا اردت ان تجعل رجلا من المحابيس الجدد يبكى كالنساء ويقول انا امرأة، فأخبره ان عياله مات منهم اثنين وان زوجته طلبت الطلاق منه وتزوجت . واذ ينزل الليل تطلع الوطاويط ويسمع صوت اجنحتها عندما تصطدم بالجدران او افواهها تأكل النبق المختطف من شجرة قريبة . وساعات يصرخ المحابيس من اسفل وتنبعث رائحة كريهة مهولة تهب فى أحايين كثيرة فجأة ويكاد السجانة ان يهجوا على رؤوسهم لفظاعتها . ولم يعرف سبب ذلك .

جاءنى سجان كبير واخبرنى ان الامير طقطباى مقدم الف ارسل جملة محابيس لايداعهم عندنا . قلت كم عددهم . قال اربعون ولم تمضي ساعة او اكثر وكان الليل قد نزل تماما حتى سمعت جلبة باسفل . وقفت عند حافة السور وانا احترق لرؤية المحابيس الجدد . هكذا كلما جاء وارد جديد تمنيت ان اراه بسرعة . واروح أخمن من اعلم . انى لا اعرف من يجيء الى المقشرة الا بعد تسلمى

له ؛ ومن يعلم . ربما كان احد الامراء وربما الامير الدودار او اتابيك العساكر نفسه . لا يعلو انسان فى بر مصر والعرب والعجم على المقشرة . واذ يكون واحداً . كلام مطموس فى الاصل. ماذا يدور بباطنه . وكيف . وكيف يجد نفسه الآن . بعد ان كان فى صباح اليوم نفسه . اميراً عظيما تدق على بابه الكوسات (الطبول) ويمشي السعاة امام ركبه. وقبل شكه فى الزناجير (الحديد) اضربه مرة واثنين وثلاثا واجعله يقاسي من البهدله والمشاق ما لا خير فيه . لا يعلو انسان على المقشرة . انت أمير . أمير فى بيتك وعلى نسائك . واقول له ربما خربوا بيتك واغتصبوا نسائك ونهبوا شاشك وقماشك . وكلما علا الانسان فى مقامه زدنا فى ايلامه . هكذا يقول مولانا وسبحان من له الدوام .

قمت متجولا فوق السور . الطريق الكبير تحتنا مقطوع . الرجل من المنارة عليه خمدة . فمن ايام نادى مولانا بالا يمشى احد بعد العشاء ولا يغادر المماليك الطباق ولا ينزلون الى المدينة ملثمى الوجوه . ضربت الحجارة بيدى وناديت سجانا كبيرا . سألته متى يصل الوارد الجديد ؟ قال بعد ساعة زمن . قلت ألم تعرف بعد من هم ؟ قال انهم فلاحون . هززت رأسي بلا اهتمام . هذا شيء يثير القرف . سألني اين نضعهم ؟ قلت فى القاعة الصغرى . قال الاربعون مرة واحدة ! قلت نعم .

رب يسر واعن .

.. كل منهم كعود البوص او عصا الخيزران ، ثيابهم مقطعة. ايديهم مربوطة الى بعضها . عيونهم جاحظة كأنهم زجوا الى يوم الحشر. لا تعلوا منهم همهمات او اصوات. اما الليل فساكن لا يبدد هدوءه صوت. ولن انام فى وقت قريب . فلأعرف بعض احوالهم. قال سجان كبير انني لن أجد فيهم مايسر . كلهم مثيرون للقرف. سألت واحداً منهم. ماذا فعلت يا بن معيكة؟ طلع صوته متحشرجا غليظاً . والله لم أجن ذنبا ولم ينكسر على درهم واحد من مال السلطان . صفعت آخر على قفاه وتلقى الصفعة بهدوء كأنه يقول . اضرب غيرها ورجعني الى امرأتي وعيالي . ثم قال انهم كانوا فى الغيط يرمون البذار ولا يدرون الا الفرسان يكبسونهم. وينتقون اربعين رجلا ويشكونهم فى الحديد . سكت الرجل وصاح فلاح عجوز . جاءوا بنا على اننا عربان ياسيدنا ، ما قدروا يمسكوا عربيا واحـدا من أهل الجبل . فأمسكونا نحن حتى يقولوا للسلطان . أنظر أحضرنا لك أربعين عاصيا . ونحن لم نعص ولم .. درت حولهم ولمحت أربعة صبية صغاراً يتمنى اى من المحابيس ان يسكن مع واحـد منهم ، صاح سجان كبير آمراً إياهم بألا يزعقوا فى الليل . لان السلطان سوف يعرضهم قريبا . ارتفع عويلهم كالنساء . زعقت فيهم فسكتوا . ورأيت رقابهم نحيلة جداً وعظامهم بارزة. لمحت شابا عيناه واسعتان . سألته هل انت متزوج ؟ قلت امرأتك شابة ؟ لم يرد . كتفاه عريضتان . قلت على مهل . لن ترى عيالك

أبدا تصور هذا وتمعن فيه جيدا ، ظل صامتا ؛ وقلت له انك
أول من ستقطع رقبته او يوسط على باب زويله ، ألا تخاف ؟
فقال انا حزين وبى رجفة ، قلت هذا لن يمنع واشرت بيدى
وغمزت بعينى ، سألنى فجأة ، كم سأقضى فى الحبوس ؟أطرقت
لحظة ثم قلت له أتحب ان تعرف المدة ؛ قلت اذا قدر لرقبتك
الا تقطع او جسمك ان يوسط ، فربما تقضى عندنا تسعين عاما
اذا قدر لك ان تعيش هذه المدة وربما سنة ، وربما عشرين ،
لن تخرج الا اذا امر السلطان بذلك ، وانت من سيوصل امرك
الى مولانا؟ هل تعرف والى القاهرة او اميرا كبيرا حتى يشفعا
لك عنده ؟ رأيت الخوف يغشى عينيه ، قلت لنفسى هذا واحد
لا يعرف ما ينتظره فلأقل له ولأتمعن ما يدور على وجهه
ولأخمن ما فى نفسه،وها هم بقية الذعر مصخين كأن على رؤوسهم
الطير ؛ قلت هذا اذا لم تمت مطعونا « بالطاعون » او لم يمص
الوطواط دمك ، واعلم ان الوطواط فى المقشرة كالرجل
والعقارب كالبغال ، اما اذا شعرت انا بالملل فى اى ليلة فربما
جئت بك عندى لأعريك واقطع لك «كلام فاحش آثرت حذفه»
واعلم اننا لو فعلنا ما نريد بك ، تصور ، اى شىء يخطر لنا، فلن
يتكلم احد ، ولن يرفع رجل سبابته احتجاجا ، ولن تعول
عليك امرأة او تنوح عليك زوجة ، قلت لنفسى اننى اعرف
تماما ما يجرى الآن فى عقله وصدره ، فلأبعث فيه ما قد يسقطه
ميتا . سلطاننا نفسه لا يملك ان يفعل مثلما افعل . هل يستطيع

ان يقول ما اقول لأى من المحابيس فى السلطنة ؟ همس الفلاح العجوز ، والله يا امير ما عملنا شيئا . ضربه سجان كبير على وجهه ، ونزل الصمت فوق الجميع كالمصيبة .

وكان القمر ينسحب على حائط السماء مخنوقا مبتور الوجه ، اقتربت من الشاب عريض الكتفين . طبعا أنت لا تعرف كل ما عندنا من الوان العذاب ، والويل لك لو اشار واحد من اصحابك عليك وقال انك تحور مبلغا من المال حتى لو عشرة دنانير . تكلب وتخوزق وتعصر اطرافك واصداغك وتخلع اسنانك وتدق فى فروة رأسك او نخلع ابزازك ونشويها ونطعمها لك . لاحظت ان ثبات عينيه قد اهتز ، وشفتيه ترتجفان . قربت وجهى من وجهه كاد أنفى ان يلامس انفه ، وفجأة زعقت عليه زعقة عظيمة فتراجع الى الوراء متعثرا ، فانطلقت الكمه فى صدره لكما هينا طريا لكى اعرف تماما ما يحدثه من أثر ، وصحت منبها اياه واياهم انه لن يرى امه ابدا . ابدا . ولن يسمع نداء زوجته اذ يرجع من الغيط . وفى الجب سينسى ملامح اولاده واسماءهم قلت لهم كلهم وانا اعتدل فى وقفتى . لن تعثر شمامة لكم على اثر .

وصحت على سجان كبير فرفع عصاه . وتدافعوا فوق السلم الحلزونى الضيق وهم يعولون كالنساء وكلما أوغلوا فى البعد الى أسفل . ماتت صرخاتهم . وفى الطيقان السفلى سيحاول رجال ربما مضى عليهم ستون او سبعون سنة ان يعرفوا القادمين من

العالم الذي باتوا يجهلونه ، ذات ليلة عندما نزلت بنفسى لاضع الامير اقباى الطويل فى الحبس . سمعت رجلا يزعق من مكان مظلم مررنا به يسأل عما اذاكان يوجد عالم حقيقة ام لا . وآخر يسأل عن احوال الناس ومن اى حى جاء القادم الجديد . وتتلاحق الاصوات حتى كاد اقباى الطويل ان يموت رعبا على نفسه . لكنه لم يمت . استندت على السور الحجر بذراعى ورأيت المدينة عليها خمدة . وكانت الليلة وسط بين الخريف والشتاء . وعما قليل تجىء الامطار وتهطل حتى توحل الاسواق وتمسى المقشرة مكانا مهولا مفزعا . تنبهت الى اننى لم اصل العشاء فاستغفرت ربى . ومشيت الى غرفتى . لحقنى سجان كبير واخبرنى ان السلطان سيأمر بعرض هؤلاء المحبوسين ربما بعد اسبوعين او ثلاث . لم أرد وطلبت منه سجادة الصلاة .

دررة

قال ابن سيدة .

السجن هو الحبس . والسجان هو صاحب السجن . ورجل سجين يعنى مسجون . وقال رحمه الله ايضا وحبسه يحبسه حبسا فهو محبوس وحبيس واحتبسه وحبسه يعنى امسكه عن وجهه ومنع حركته وخنق جولاته وروحانه .

ءيب يسر وأمن

من ليالى أوقفنى الشيخ مسعود عند حارتى بعد ان تركت بيتى

قال الا تخاف الله يوم القيامة ، قلت استعيذ به واليه الجأ ، هل رأيتنى فاسقا او مقصرا فى الفريضة او ابلغك عنى الذعر انى جدفت فى حق ربى ، لا والله يا شيخ مسعود ، قال لا هذا ولا ذاك ، لكنى اسمع انك تذيق المحابيس صنوفا من العذاب وانك تجمع الكثيرين فى موضع يضيق عنهم غير متمكنين من الوضوء والصلاة وقد يرى بعضهم عورة الآخر ، قلت كل عمل وله سوءاته ومميزاته يا سيدنا ، واعلم ان كل ما بلغك كذب من اوله الى آخره ، قال لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، طلبت منه ان يدعو لى بالمغفرة ، قال اللهم احجب عنا بلاءك وشرك فضيت وبنفسى منه ، كأنه يظلنى امرا لبرج القلعة والخزانة شماتل وسجن الديلم ايضا والعرقانة ، وما ذنبى انا ؟ هل انا الذى ابتدعت الحبوس ! أليس أمير المؤمنين وثانى الخلفاء هو الذى ابتدع الحبس فى الاسلام ! وابتاع دارا فى مكة يضع فيها مايرى انه يستحق ان يوضع ويوثق ، والله ليس غريبا ان تجىء الى المقشرة يوما ما يا شيخ مسعود . عندما امشى فى السوق والناس حولى يتدافعون فى اتجاه سوق الليمون . وباعة يصيحون وغلمان يعودون . نهاية النهار وبداية الليل . تزيد الحركة ويكثر البيع والشراء وفجأة يحل الهدوء والسكون . كأن العالم مات . عندما امر فى هذا الطريق يثور بى خاطر . لابد ان جميع هؤلاء سيجيئون الى المقشرة ويصبحون تحت امرتى . ليسوا مرة واحدة . لكن كلا له دور . كل عليه عدة لا بد أن يقضيها او

يقضى . طلعت الى حجرتى وانا من الضيق فى امر عظيم . طلبت احضار الامير مغلباى الذى خامر على السلطان وكبس جامع السلطان حسن وحاول ان يتعبث بعرش السلطان ويسطو عليه. كان داهية . لا يجرؤ مملوك او واحد من اولاد الناس او العوام ان يعترض سبيله . والله لافعلن به واجعله .

هنا اصاب الورقة تلف جعل الاحداث تتوقف ، غير ان ما يلى هذا لا يبعد الأحداث كثيرا عن سياقها الطبيعى .

* * *

ولا ادرى الى اين؟ وهممت ان أستل سيفى واطيح برأس كل من يقابلنى . غير ان المصيبة عظمى فهدأت روحى . الامر لا بد ان يدبر فى هدوء . لو شاع وافتضح لاهتزت رأسى . اى ايام سوداء فى انتظارى ! كل سيوز السلطان على بكلمة . اما اتابيك العسكر نفسه فسوف يركبنى فوق بغل بالمقلوب ويجرسنى فى القاهرة كلها . ارجموه ، اضربوه ، عذب ولدى ؛ قتل رجلى ، قطع ذراعى ؛ خوزقنى ؛ ادخل خنجره المحمى فى . رمانى ثلاثين عاما كاملة لانه طمع فى امرأتى فحبسنى ليخلو له الجو وينالها . الفاسق . الزانى . يارب الطف . يارب أعن . يلطمنى السوقة والعامة . ويصيح المنادى امام الركب . هذا جزاء من لا يحفظ على حبوس السلطنة واى حبوس هربت يا خراب ديارى . ارهبون فلاحا لو قتل مثلهم فى الطريق لما ارتفع اصبع

ولا اهتزت شفة ، همت السجانة ، صحت فيهم ضربا وركلا ورأيت ابدانهم تكاد ان تنخلع لهول رعبهم ؛ صرخت عليهم أتعرفون اي هول ينتظركم؟ انتم ادرى الناس بالمقشرة؛ يستعدون مكانا بعيد المنال منكم ، غير اني بعد وقت جمعتهم ، لو افتضح الامر ؛ لو ذاع الخبر ؛ لقتلتكم اجمعين ،. وعقدت يدي امام صدري وتمنيت من الله الا يرسل السلطان في طلب العربان المفسدين ليعرضهم ؛ وخرجت الى الطريق طافشا على وجهي ، وفي قلبي جمرة نار ؛ اقبل رجال يرفعون بيارق حمراء ويدقون الطبول ، يتقدمهم رجل حول وسطه قماش احمر يدور حوله بسرعة كبيرة والرجل يلف ولا يدوخ ولا يقع، وكانوا يزعقون في حماس . الله . الله. تمهلت حتى مروا وكان المغيب يقترب ، وعما قليل ينزل الليل فجأة ، هب الهواء باردا حتى وخز عظامي ؛ توقفت حائرا والطريق تزداد به الحركة وتعلو وتذكرت عيالي وامرأتي في البيت ، تمنيت ان امتطي جوادا يمضي بي ولا يتوقف لكنهم سيدركونني ، حرت فيما افعل ، وصحت بنفسي. الثبات . الثبات . نزلت ثلاث درجات تؤدي الى جامع قديم منخفض ؛ وكان الهواء مقبضا ، وقفت خاشعا وتذكرت عددهم. اربعون فلاحا . والامر لله .

* * *

سبحانك اني تبت اليك وانا اول المؤمنين . اللهم اعف عنا

واغفر لنا ؛ اللهم لا تشمت بي الاعداء ولا تجعلني مع القوم المارقين، ارجو رحمتك بقولك ـ ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ـ ذنوبنا كثيرة ، وطاعتنا يسيرة ، كلنا تحت الزلة والتقصير ، يا رب لولا ذنب المذنب لما ظهرت صفة عفو الكريم ، ولولا تقصير المقصر لما بان غفران وحلم الحليم ؛ اللهم اني ألوذ واستجير بحبيبك الذي نزل في حقه (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين).

* * *

رب يسر وأعن .

سألت سجانا كبيرا ؛ هل رآكم الاهالي ! هل زعق عليكم المماليك ! فقال لا صغير ولا كبير احس بنا ، فالمماليك لا ينزلون من القلعة بعد المغيب ، ودرك الوالي لا يجولون في الطرقات الا بعد توغل الليل . ثم من نحن ؟ ألسنا جند السلطان ! اسم كل منا يعرفه اهالي البلدة اجمعون . وفوقنا تجمعت غيوم ثقيلة ناءت بحملها السماء ومالت حتى تكاد ان تلامس البيوت . زعق اولهم عندما طالعني . ماذا فعلت يا أمير . صفعته بالصوت على وجهه . ودققت في الورم المستطيل الاحمر المفاجيء الذي انتفخ مكان الضربة صرخ احدهم كالنساء . يا خراب بيتي وعيالي وقال آخرون انهم ما جنوا شيئا يؤاخذون عليه وان واحدا منهم لم يغش مخلوقا ولم يشوش على انسان وقال بعضهم انهم اكثر اهل

مصر طاعة لكل ما قيل وما سيقال . فاذا فعلناه حتى تحطوا علينا فجأة ونحن نبيع الليمون فى السوق وتأخذوا جمالنا واحمالنا وتشكونا فى القيد الحديد؟قالوا انهم غلابة، وان اهاليهم سيموتون حزنا عليهم ، لانهم راحوا مصر ولم عادوا ، انا لي عشرة اولاد يا سيدنا ، اما انا فقد وضعت حياتى فى قفة الليمون التى حملتها فوق عنق لأبيعها فى السوق ، رحت اصغى الى ما يقولونه ، وثمة برد وسلام ينزل على قلبى ، لم اتكلم ، الفلاحون الذين اتى بهم الداودار لم يكونوا كهؤلاء فى الزعيق والصراخ . لكن هذا بطبيعة الحال ، الآخرون جاءوا من قراهم مباشرة ، اما اولئك فما اغرب حالهم ، رجل يخرج من بلدته ولا يرجع؛ ولن تعرف امرأته ولا عياله ما جرى له ، وبعد ايام يطب السلطان عرض العربان المفسدين المتعبثين فى الارض الذين اسرهم الامير الكبير، فتضرب اعناق البعض ويوسط الآخرون، وتتدلى اجسامهم المزيلة من باب زويلة وباب الشعرية ، وقد ينتن الواحد منهم فيجيف لحمه ولا يجد من يدفنه حتى يتصدق عليه مؤمن فيدفنه ، ولن تنتطح فى ذلك شاتان ، ويروح كل منهم على امره ويخلو مكانه وينتهى خبره ، قلت لهم وكلهم مصغون كأن الصور قد نفخ فيه النفخة الاولى فخربت الارض جميعها . انتم من العربان المفسدين ومهما زعقتم وقلتم غير هذا فانتم تقطعون الطرق وتهاجمون ركب الحج ، ستقولون نحن تجار ليمون ، نزرعه ونبيعه ، لكن لن يسمعكم احد . رحت ادور حولهم أتملى جحوظ عيونهم وملامحهم المرتعبة والرجاء المخلوط

باليأس فوق الوجوه ، عجبا أهذه الرؤوس كلها ستمشي بالقش بعد قليل ؛ ارتعش جلدي وطاف بدماغي خاطر طردته بعيدا واستعذت من الشيطان الرجيم ، الغيوم الثقال حبلى بالمطر وعما قليل ينزل السيل كالبحار ، صرخاتهم تطلع الى الفضاء الوسيع ، حتى لو سمعتهم الدنيا كلها فمن يسأل امر المقشرة ؟ تراجعت الى الوراء خطوة وزعقت على سجان كبير ان يرميهم في الطباق الاوسط وان يربط كلا منهم الى الجدار بثلاثة مرابط حديد ، قبل ان ينزل السلم سألته كم عددهم ؟ فقال اثنان واربعون ، قلت له وكم كان أسرى الامير ، قال اربعون ، اطرقت مقدار درجة وقلت له ارسل الى اثنين خلعت خنجري من جرابه وأبرق نصله في الهواء .

* * *

هكذا تنتهي اوراق المخطوط فجأة واكاد اكون متيقنا ان هنالك اجزاء مفقودة منه ، كل ما ارجوه الا تكون يد الفناء قد امتدت اليها فأنهت عليها . لذا ارجو من هواة ودارسي المخطوطات القديمة اذا ما عثروا على الاجزاء المكملة لتلك الاحداث الغريبة ان يتكرموا بارسالها الي . حتى انشرها ويمكن الاستفادة منها .

كشف اللثام عن اخبار ابن سلام

يا رب يا ساتر المؤمن من العيوب . يا كاشف الغيوب . يا من ارشدت قوما من دون الخلق اليك . ثم وفقتهم للاعتماد فى كل امر عليك . اللهم صلىوسلم على نبيكسيد البشر . كاشف الحقيقة وحامى الصدق العائم فوق البحور الغريقة . وبعد، اعلم انى سطرت هذه السطور . لا لشيء الا ابتغاء مرضاة ربى . وكشفا لحقيقة انسان عرفت اخباره عن قرب . قاسى مالم يقاسه الاولون . وذاق مرا وهجاجا لم يذقه الآخرون . وفى ايامنا تضاربتحولهالتواريخ. فثمة من ينسب اليه سوى الفعال . وآخر يحمل سيرته بما لم يجر ولم يحدثوزعم آخرون انه وهم لم يوجد . ومن يعلم .ربما جاءفى قادم العصور من يرغب فى معرفة طرف من اخباره . فيكون حديثي هذا هاديا ومرشدا .

ذكر أصله ونسبه .

هو الفقير الى ربه ، يوسف بن ابراهيم بن سلام ، لا يعرف أبعد من جده الثالث، واذا سألته لاجاب، انا يوسف ابى ابراهيم وجدي سلام ، وكنيتى ابن سلام فلا تنادينى الا بهذا ، كما انه لم يقل لاحد متى ولد بالضبط ولا أين ، يقول انه سمع امه تقرن تاريخ مولده بمجيء الوباء العظيم الذي مات فيه ابوه ، غير انه كان يطرق ثم يقول ، لكن اي السنين لم تخل من الوباء، وأشاع عساكر العثمانية بين العامة انه غريب عن بر مصر ، وقالوا انهيطمع فى ثروات الجراكسة ، بل ان السبب فى مروره بالطرقات متوقفا

بين لحظة وأخرى زاعقا باعلى صوته مما جرى فى النهار من جند ابن عثمان. انه كان يقيم فى عشة قديمة على باب حارة درب الرصاص. وعندما شرع العسكر لازالة ابواب الحارات قوضوا عشته . ابن سلام بلا مأوى فسخط وطفش فى الطرقات . ويكررون انه ليس من أهل مصر . والا فأين كان وقت خروج التجاريد ؟ والا فأين كان وقت ان علق طومانباي على باب زويلة . والا فليقل للعوام الذين يمشون دائما وراءه ، يرددون ما يقوله . يحيطون به اذ ينام. لماذا لم يمت اذا كان يبكي ما جرى ! لا ياقوم. لا تصدقوه فهو دجال.

حاشـــية .

اخبرني من أثق به : ان بعض السوقة دفعوا عنه خطر العثمانية عندما حاولوا خطفه . وراح ابن سلام يطلق صوته الغريب الذي لا هو زعيق ولا صراخ ولا حتى بين بين ، تراجعوا من حوله وابتعدوا فى كبكبة الزرد والسلاح لا يجرؤون على الاقتراب منه. وأطلق العامة صيحات التكبير والتهليل .

فصل فيما جرى له عند دخول العثمانيه .

... عندما ثارت فتنة بن عثمان . وجاءت الرسل من الشام بما جرى . لم يعد الرجال يغلقون ابوابهم فى حارة درب الرصاص . كما ان ابن سلام لم يعد يغلق بوابتها بعد المغيب . كل من اهل الحارة امام بيته. يخمنون ما يجري . فالاخبار مقطوعة. والقول الذي

يبدو مؤكداً فى الصباح يصير مكذبا فى المساء . كل هذا والناس فى كرشة عظيمة . وابن سلام لا يأوى الي عشته ابدا . وفى هذه الليلة التي جاء فيها رجل نعذ بجلده من الشرقية وراح يحكى ماجرى، اقترب منه ابن سلام وبدا ان ظهره الهرم قد ازداد انحناء . ابن عثمان يعطى الأمان ويدخـل بلبيس : رجاله يطيحون السيف فى أهلها حتى قيل انه قتل فوق العشرة آلاف انسان من عربان وجند وفلاحين صارت جثثهم مرميـة فى الطرقات . اما الاحياء منهم نخطفهم العثمانية وباعوهم بابخس الاثمان حتى ان البكر التى لم تفتض بيعت بثلاثة دراهم . هنا زعق ابن سلام متسائلا عن الثمن الذي بيعت به البكر ؟ ثم سأل عن عدد القتلى . وأضاف الرجل ان سائر بلاد التي مر بها ابن عثمان كادت تخلو من سكانها حتى انك لتدخل القرية وتنادي فلا يصادفك انسان . تحسر الرجال . واستعاذ ابن سلام بربه . سمعه الرجال يقول : والله لم يجر هذا لمصر من قديم الزمان . الا زمن البختنصر البابلى . اصغوا وكأن عليهم الطيرة . ماذا يقول عجوز الحارة ؟ ومن هو البختنصر البابلى ؟ لم يكرر قوله وراحت أسئلة الناس كحجارة رموها فى بئر بلا قرار . بل ادركوا انها المرة الاولى التى يسمعون فيها العجوز . طوال سنين لم يفارق عشته . لم يدخل بيتا ولم يعبر حتى أسوار المدينة . منذ هذه الليلة لاحظوا انه يخرج كل نهار . رؤي فى أطراف القاهرة وعند صحراء الرميلة . وقال آخرون والله اعلم انهم شاهدوه فى ميدان الريدانية . بل ان هناك من اقسم انه رآه

عند سبيل علان، يسقى الجند ويحمل معهم الاتربة . وفى اليوم السابق لدخول الخنكار مدينة القاهرة رجع الى عشته مغموما مقهورا ممزق الثياب . بارز العظام . حتى ظن من رآه ان الصغار رموه بالحجارة . اما الحارة فنزل فوقها الخراب . وزع الاغنياء من أهلها ذهبهم وفضتهم وقماشهم على الاماكن المجهولة . ولجأ من يخاف على نفسه وعلى حريمه وعياله الى المزارات البعيدة وفساقى الموتى . وان لم ينفع هذا فيما بعد . وبدا لمن تبقوا انهم يرون ابن سلام اول مرة فى حياتهم عيناه اللتان دبت فيهما الحياة زعيقه فى جوف الليل . يارب : وتنبهوا الى انه لا ينام ابدا . حتى حاروا فيما جرى له وما اصبح عليه . وفى الصباح سألوا عنه . وجدوا عشته خاوية . تذكر البعض انهم رأوه يصلى الفجر فى المسجد القريب . وطلع النهار وزادت الرجل فى الطرقات . وفجأة علا صراخ الموقعة . وكانت الكيكبة . وهو النزال والقتل والطعان . ورجفة الارض اذ تنطلق المكاحل الكبار بالبارود . وانعقد الغبار سحابات قتيمة فى سماء المدينة . وبدت البيوت يتيمة . والدكاكين مرعوشة تنادي . الامان . الامان . والحواري كالمساكين فى المجاعة . كل هذا والشتاء يعمل عمله . ونظر الاهالي من خلف الطيقان المغلقة . والعصر يرمي فى الشوارع وحشة وخنقه . وأغرق النفوس ألم وخمدة . ها هم جند الخنكار يطلقون البندق الرصاص فى الهواء . يصرخون كالبهائم . همج بلا نظام، ها هم يتوقفون . يلجون البيوت حجتهم البحث عن المماليك

الجراكسة . وعلا صراخ الحريم وآلام العيال واستمر النهب والقتل عمالا حتى بعد مجىء الغروب والشمس ليس لها من اثر . والمنادين فى الطرقات . ادعوا بالنصر للخنكار سليم بن عثمان . لا يخبىء احد منكم جركسيا والا . ومن ناحية سبيل علان . وفوق قناطر السباع ، خيل للناس انهم يسمعون صوتا يقول كلاما آخر . عجوز محنى الظهر . يبدو فى حمرة المغيب . يتكىء على فرع شجرة ، يمشى بسرعة كأنه يجرى هزيل لا يبين . راح الصالح بالطالح ولعب السيف فى رقاب الأبرياء . طرش العثمانية من أهل مصر فى يوم واحد الف الف الف انسان . الجثث مرمية تنهشها الغربان . لا تجد من يدفنها . ابدان بلا رؤوس ورؤوس بلا ابدان . يا حى يا قيوم يا من لك الدوام راح الصالح بالطالح ، قيل ان الصوت سمع فى باطنية . بل ان اهالى الجوانية استطاعوا تفسير ما قاله الصوت . واى مسافة تفصل المكانين عن بعضهما وحاروا فيمن يكون ومن يجرؤ على التجوال والزعيق وسط هذا الضجيج والعجيج . قالوا انه مجذوب . وقيل انه رجل قتل ولده فى الموقعة وذكر آخرون انه انسان فاض به الحزن لهول ما رأى . وأقسم ثلاثة ممن كانوا يختبئون فى فساقى الموتى قرب ضريح الامام الشافعى . ما هو الا عجوز معروف لاهالى قصر الشوق عامة وساكنى درب الرصاص خاصة . انه معروف لدينا من صغرنا نراه . الشيخ العابد الزاهد ابن سلام . وأكد شاب انه اصطدم به اثناء جريه فزعا . انتابت جسمه عندئذ رعشة .

واقسم بتربة ابيه انه راى فم ابن سلام خاليا تماما من الاسنان. فراغ مظلم يقطر دما . غير ان اهالى الدرب كذبوا ما سمعوه , صحيح ابن سلام عجوز لكن اسنانه سليمة . وقال آخرون ان فمه لم يكن به اسنان . غير انهم تعجبوا كيف يتناقشون والموت يمشى على اقدامه فى الطرقات . لا يأمن احد على روحه ، الحرائق تشتعل فى عدة اماكن . غير انهم فجأة سمعوا صوتا واضحا آثار الرعشة فى قلوبهم ، أخذهم حتى كادوا يبكون ، لا عجب فالناس فى أسى وهم عظيم وجرحهم طرى مفتوح لايزال ينزف الصوت متوحش وغريب، ضاع الأمان . وراح من راح، هتكوا عرض عشر نساء فى جامع المؤيد ، وقتلوا بائع خيار عند باب النصر . أكلوا خياره . القتل والنهب عمال . راح من راح . اطلوا من الطيقان التى غلقت من وقت بعيد . صاحب الصوت مضى . سمع من يردد ما قاله . سألوا بعضهم فأكد رجل رأى المنادى بعينيه . هو بعينيه . زاهدتا وفقيرتا .

ذكر أخبار شعره .

اعلم غفر الله لك ان ابن سلام لم يقرض الشعر طوال عمره او هكذا قيل حتى وقعت الشدة العظمى . وحدثت الكارثة . وعمت القارعة . وصال جند ابن عثمان وجالوا وهاشوا على ناس مصر . وما راعوا لجوامعها ولا لزرعها ولا لنسائها حرمة . ونهبوا دكاكينها وقصورها وما ابقوا الا الجدران ، يذكر الناس

ان ابن سلام بدأ عندئذ يقول الشعر ، وقد اشاع العثمانية ان الجراكسة كانوا ينظمون له هذا الشعر ليقوله فى الطرقات .
لكن اخبرنى من اثق به ان ابن سلام هو الذى فرض كل ما قاله من شعر . ثم ان شعره الذى ابكى الناس واجرى الدمع انهارا من العيون ، لم يتبق منه شيء ، ولو كان واحد من الخلق كتبه له لبقى منه بعض ما كنا نود ان نورده هنا . يقول القاضى بدر الدين بن زيتون ـ نفعنا الله به آمين ـ ان القاء ابن سلام لاحدى قصائده استغرق مرة وقتا ينحصر بين آذان العصر ونزول صفرة المغيب . وهذا من غرائب الزمان .

فصل فيما كان يفعله ويقوله .

افترش ابن سلام الطريق الكبير القريب من السوق . يحيط به من اعتادوا المشى وراءه ، وتساءل التجار والناس والعيال عما ينويه ابن سلام ، وفوق البيوت تجمعت الغيوم الثقال . ولا عجب فقد امطرت السماء طوال ثلاثة ايام . ولم يكف الرعد فى الليل او النهار كذا البرق ، حتى اوحلت الارض وصار المشى صعبا ، ويقسم من كانوا على مقربة من ابن سلام انه لم يرتجف من البرد ابدا ، كما ان ثيابه لم تبللها نقطة ماء . وفجأة وقبل الظهيرة ، علا دق الكوسات والطبلخانات وزعق النفير من بعيد ، وبدا من نهاية الطريق متولى محتسب القاهرة قادما من ناحية الرميلة حيث القلعة ، يمشى امامه السعاة ، له هيبة

ومهابة تكاد تحاكى هيبة الملوك ، قام ابن سلام زاعقا . متوسطا الطريق يا حى يا قيوم ، وتردد الجمع مقدار درجة فى الاحاطة به ، غير انهم قد احاطوا به ؛ وأطل الاهل من الطيقان ، وبطل النداء على سائر انواع البضاعة ، كفت الطبول ؛ سكتت الكوسات. زعق ابن سلام زعقة عظيمة ، اقول وقد عاينت ذلك بنفسى ، ان قلب الواقف على بعد الف متر منه لا بد وانه ارتجف هولا ورهبة ، تقدم من حصان المحتسب ، انزل يا زينى من فوق سرجك وكلمنى ، وعلى مهل نزل الزينى يتعثر فى قفطانه الحرير وجبته ، صاح عليه ابن سلام : ظلمت العباد وفرضت من الضرائب ما لا يطيقون ، شردت العيال ، وزدت عدد الارامل ، وفى هذه اللحظة تصايح الواقفون وراء ابن سلام ، ومعظمهم فلاحون جاءوا من اقاصى البلاد بعد ان سمعوا به ، والآخرون حاقت بهم المصائب فلزموا جانبه ؛ وأطرق الزينى براسه ، يا زينى ألم تكن انت الرجل المقرب عند السلطان الشهيد قنصوه الغورى ! وكنت تقبل يده وطرف جبته فى اليوم مرات ! ما الذى جرى يا عالم ! ما الذى فعلته ! وقمت به حتى نراك اليوم الحبيب المقرب لابن عثمان ؟ ألم تدعو انت على الخنكار قبل خروج الغورى إلى الشام ؟ ألم تشرف على جمع النقود والضرائب ؟ ويا ليتك اليوم نصيرا لاهلك عند العثمانيه . ها انت مستمر فى فرض المكوس وترينا من المظالم انوعا وانواع . قيل أن الزينى صار يتلفت حوله مذعورا . انتابته رجفة . وربما سمع الكلام من ينقله فى

التو الى ملك الامراء ، ياخراب دياره . لن يمضي المغرب الاويشك فى الزناجير ويهدم فى اليوم التالي . يشك من ضلوعه كالباذنجان. كل هذا وابن سلام لا يكف ولا يهدأ . انت كنت معهم عند ما هجموا امس على سكان الجزيرة الوسطى ، طفشوا فى بيوتهم ورموا عفشهم فى الطرقات وضربوهم حتى انقطع حسهم . كل هذا وانت معهم . لا تقول لهم اسكتوا ولا ترفع عنهم الاذى ، كل هؤلاء شاهدون وسمعوك واستغاثوا بك ، لكنك لم تأبه لهم وبهم يا كافر . ياعدو الله . انتفرت عروقه . وكاد الدم يخرج من عينيه. اما الناس خلفه فصاروا يصرخون ويستغيثون ؛ وفجأة مد ابن سلام يده وجذب الزيني بركات ابن موسى من لحيته ، وخلع عمامته ، ورماها فى الوحل ، وبهدله آخر بهدلة ، وهذا لم يتفق فى قديم الزمان او حديثه ان ناسكا او غير ناسك مرمغ هيبة رجل ذى سطوة وجبروت . خاصة كالزيني بركات ابن موسى ، فقد ظل نجمه يلمع وسعده يطلع فى زمن الغوري وزمن الخنكار ، ما حير العقول وأربك الالباب ، وقيل ان الزيني وعد ابن سلام ان يكلم ملك الامراء فى امر هذا الخراب ، غير ان ابن سلام لم يصغ اليه ، وتزايد عدد العامة فجأة حتى انك لو نثرت ذرات الملح فوقهم لما نفذت ذرة واحدة ، وارعدت السماء فجأة رعدا مهولا حتى وجفت قلوب الناس بما فيهم عسكر العثمانية الذين تجمعوا عن قرب ، وتهامس العامة وسائر أهل مصر ، أن البارى عز وجل غاضب على ما نزل بعباده ، انتابت القلوب رجفة ورهبة ، ورفع ابن سلام

عصاه ممسكا بها من منتصفها . زعق نائحا على من مات . معددا من رآهم قتلوا منذ دخول العثمانية ، راثياً اهل مصر الذين انتزعوهم من وسط عيالهم وارسلوهم الى بلاد الخنكار ، حتى حدائق الفرجة التى خربت ، وايوانات الجوامع الجميلة التى نهبت عواميدها واحجارها . وعندما استرسل كاد القوم يشقون ثيابهم ، كبروا وهللوا ؛ وانطلقت فيهم جمرة نار مهولة تقيد ولا تنطفىء . صكوا الزينى ورجاله بالمقارع وبرغم زيادة الهول وشدة الضجيج ، فقد سمع جميع أهل المدينة صوت ابن سلام نقيا كالزئبق ، صافيا كالبللور ، برغم تقدم العمر ، وزيادة الهم ، وشدة الضيق ، والكرب .

ذكر أخباره الأخيرة وكيف انتهى أمره .

طاف المشاعلية ثلاثة ايام . راكبين وراجلين . ينادون : بان الكاذب اللئيم مدعى الزهد والعبادة ، سوف تدق رأسه بالطبر عند باب زويلة ظهر يوم الجمعة ؛ ولمدة ايام ثلاثة علا النواح من البيوت . وبرغم ان الوالي قد حرم النعى بالدق على الطارات ، غير ان النساء تحت ستار الليل رحن يقمن ويضربن على الطارات حتى الفجر ، لدرجة ان المدينة يأخذها الهول حتى ليشيب من حالتها الرضيع . ولم يجرؤ دركى واحد ان يأمر بالنهى عن هذا ، وقيل ان الجنود الذين امسكوا ابن سلام وضربوه ، قد انتابهم الندم ، لان النساك لا يقربون ، فرموا انفسهم من فوق سور القلعة ، وراح خفاف العقول من العامة يقولون ان ابن سلام هارب هائم

على وجهه فى الجبال ، وان الله سبحانه وتعالى سيمده بجند من عنده ، وانهم لم يمسكوه هو بعينه . لكن جاء ظهر الجمعة حيث خلت الجوامع من مصليها ، وخرجت النساء حاسرات ؛ اما نوافذ جامع المؤيد شيخ ، فقد تعلق الخلق بها ليرقبوا البوابة الكئيبة وما يجري عندها . وعند ظهور الحمار المربوط اليه المجوز ، سرت همهمة بين الجمع خرست فجأة ، النسوة لم يطلقن زفيرا مرتفعا ، ونزل الخراب والموت حتى لتحسه فوق البيوت ، وتكاد تخال مئذنتى المؤيد فوق زويله تميلان حزنا وقهرا ، وخلف ابن سلام سحبوا جمعا يبلغ العشرين ، قيل انهم الذين نهبت بيوتهم فى الجزيرة الوسطى ، وشكوا الى ابن سلام الظلم ؛ وكان ما كان . طلع ابن سلام فوق المصطبة . رأسه محلوق تماما ، جسمه عار الا من زنط قديم يحيط نصفه الأسفل ؛ جال بعينيه فى الجمع الذي احتشد وسكن . صاح فجأة . اقرأوا الفاتحة ، اهتزت الشفاه ، وترقرق الدمع خلف المآق ، وقيل انه التفت الى المشاعلى وقال : اعمل شغلك . وجلس القرفصاء ، بينما رفع المشاعلى الطبر الثقيل وأهوى به فوق عظام الرأس الذي انخسف وبدا كومة غريبة فى حجم قبضة اليد فوق الرقبة . انتفض الجسم الى اعلى وقيل ظل واقفا مقدار درجات وبسرعة هوى الطبر مرة ثانية . وزعق الواقفون جميعا زعقة هائلة . وكبر التحسر والاسى ، وقيل ان احجار البوابة رمت دما ولا نزف وعاطت النساء عياطا مهولا ؛ ارتجت له القاهرة . وظل جسده معلقا فوق بوابة زويلة ثلاثة ايام .

كلمة

بصدور هذا الكتاب ، تبدأ سلسلة جديدة تحتضن التجارب الواعدة ، لأدبائنا الشباب . لتساهم ما وسعها الجهد فى حل مشكلة النشر بالنسبة لهم ، مقدمة لهم زاداً من الخبرة المدعمة بالاخلاص والصدق ، ايمانا منها بما يمكن ان تقوم به الكلمة الملتزمة فى حياة الشعوب.

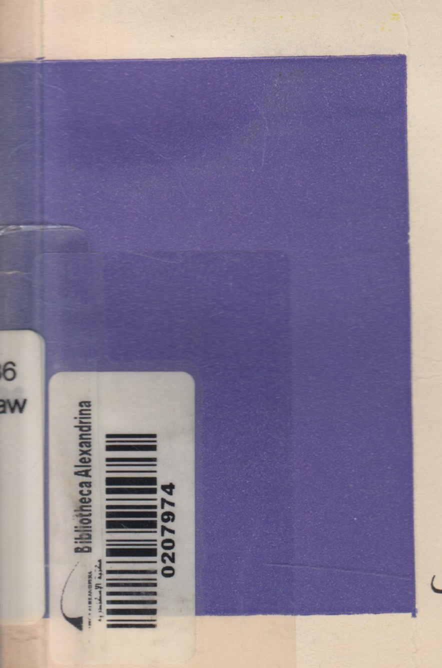
ان هذه المحاولة مجال مفتوح لكل تجربة طليعية مصرية أصيلة ، لا تصد عن المغامرات الفنية ، ولا تلتزم إلا بالصدق مع الفن ومع الجماهير ، فى هذه المرحلة من تاريخ النضال المصري والعربى .

وتبقى كلمة شكر لمطبعة الترعة البولاقية وعمالها لقاء ما بذلوا من صادق العون فى سبيل اخراج هذا الكتاب .

أدباء الطليعة

كتاب الطليعة

مدير التحرير : ابراهيم فتحي   القائم بالتحرير المسئول : سمير احمد ندا



١٠ قروش